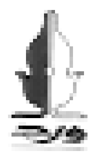
هرمان هيسه

دميان

قصة شباب إميل سنكلير

رواية





ترجمة : ممدوح عدوان

ولد هرمان هيسه عام 1877 في كالف، على حافة (الغابة السوداء)

أرسله ذووه إلى مدرسة تبشيرية حيث كان من المفترض أن يدرس ليصبح رجل دين. ولقد أدَّت عذاباته الدينية ومعاناته، التي قام بتسجيلها في معظم رواياته، إلى هروبه من معهد مولبورن للاهوت عام 1891؛ إذ لم يتحقق له هناك الشفاء الروحي الناجع لدى لاهوتي ضليع مشهور ومؤمن، ووصل به الحد إلى محاولة الانتحار.

وعمل إثر طرده من المدرسة العُليا في أكثر من مكتبة لسنواتٍ عدة وكان هذا هو العمل الذي مارسه، عادة، معظم الكتّاب الألمان الناشئين.

كتب في البداية ونشر مجموعة قصائد وخواطر ومقالات حول الموسيقى والأدب والفن، إلى أن نشر روايته الأولى «بيتر كامينسند» 1904 مصوراً فيها شاباً يرحل عن قريته الجبلية السويسرية ليصبح شاعراً. ثم اتبعها برواية «تحت العجلة» 1906، وهي حكاية تلميذ لم يكن ليتواصل على الاطلاق مع معاصريه وأبناء جيله، غادر مدرسته هارباً عبر مدن مختلفة.

ووقعت الحرب العالمية الأولى محدثةً صدمة مروعة، فانضم هيسه إلى داعية السلام واللاعنف رومين رولاند ليشاركه في النشاطات المضادة للحرب ـ غير مكتف بكتابة الكراسات والروايات، بل قام بتحرير جريدتين مختصتين بأسرى الحرب الألمان.

وفشل زواج هيسه الأول خلال تلك المرحلة (انعكس هذا في روايتيه: «كنولب» ـ ظهرت لها ترجمتان بالعربية، الأولى في بغداد

لمحمد زفزاف والثانية في بيروت لكامل يوسف حسين - و«روسهالدة». ثم عكف على دراسة أعمال فرويد، وخضع في نهاية المطاف للتحليلات النفسية تحت إشراف يونغ، وأمضى بعض الوقت في أحد المصحات للمعالجة.

رحل عام 1919 إلى سويسرا ليستقر هناك، ولينجز كتابة رواية «دميان»، التي عكست استغراقه وانهماكه الكامل بآليات اللاوعي وبطرائق التحليل النفسي. وشكّل الكتاب نجاحاً هائلاً جاعلاً من هيسّه اسماً مشهوراً في أوروبا كلها.

حوّل عام 1922 اهتمامه نحو الشرق الذي زاره عدة مرات قبل الحرب، وكتب رواية عن بوذا بعنوان «سدهارتا» - ترجمة ممدوح عدوان - وفي عام 1927 كتب «ذئب البوادي» - ترجمة النابغة الهاشمي - التي وصف فيها رجلاً تتنازعه الغرائز الحيوانية من ناحية، وفروض الاحترام البورجوازي من ناحية أخرى. ثم نشر عام 1930 «نرسيس وجولدماند»، التي أشير إلى أنها «أعظم روايات هيسه» - كما نوهت بذلك النيويورك تايمز، والتي عالجت علاقة الصداقة القائمة بين كاهنين قروسطيين «من القرون الوسطى»، أحدهما قانع بدينه، والآخر متشكك بلا نهاية وباحث عن السلام والخلاص من الخطيئة.

نشرت «رحلة إلى الشرق» عام 1932 - ترجمة ممدوح عدوان - ولم يظهر عمل أساسي حتى عام 1943 ، حين أنجز رائعته «لعبة الكريات الزجاجية» - دار الكاتب العربي. القاهرة. لا ذكر لسنة النشر - ترجمة د. مصطفى ماهر - التي مكنته من نيل جائز نوبل للآداب عام 1946 .

عاش في عزلة تامة في مدينة مونتانيولا السويسرية حتى وفاته عام 1962 ، إثر حلول عيد ميلاده الخامس والثمانين.

«لم أكن أريد إلا أن أعيش وفق
الدوافع التي تنبع من نفسي الحقيقية.
فلِمَ كان ذلك بهذه الصعوبة؟».

تمهيد

لا أستطيع أن أروي قصتي دون العودة، طويلاً، إلى الوراء. ولو أمكن لعدت إلى ما هو أبعد - إلى السنوات الأولى لطفولتي، وحتى وراءها، إلى ماضي الأسلاف البعيد.

حين يكتب الروائيون الروايات يميلون إلى اتخاذ موقف شبه رباني من موضوعاتهم، متظاهرين بالادراك الكامل للقصة، لحياة الإنسان التي، لذلك، يستطيعون إعادة حكايتها مثلما يستطيع الله ذاته أن يفعل، ودون أن يقف شيء بينه وبين الحقيقة العارية، القصة الكاملة التي تحمل المعاني في كل تفصيل فيها، وأنا عاجز عن فعل ذلك عجز أي روائي، على الرغم من أن لقصتي من الأهمية، بالنسبة لي، ما يزيد على أهمية قصة أيٍ روائي له - فهذه قصتي أنا، إنها قصة رجل، ليس مُخْتَرعاً ولامحتملاً ولامُقَرَّباً من المثالية، ولا، بالتالي، شخصاً غائباً، بل هي قصة كائن فريد من نوعه ومن لحم ودم. ولكن ما يتشكل منه الكائن البشري الحي الحقيقي يبدو أقل إمكانية للفهم، اليوم، منه في أي وقت سابق، والناس بالتالي - الذين يمثل كل منهم تجربة فريدة وقيمة في ما يتعلق بالطبيعة - يتم إطلاق النار عليهم بالجملة اليوم. فإن لم نكن إلا كائنات بشرية فريدة، وإذا كان من الممكن إنهاء كل منا برصاصة واحدة إلى الأبد، فإن حكاية القصص ستفقد كل هدف لها. لكن كل إنسان أكثر مما هو بنفسه؛ إنه أيضاً يمثل النقطة الفريدة، النقطة الخاصة جداً والهامة دائماً والمتميزة، التي تتشابك عندها ظواهر العالم، الأمر الذي يحدث مرة واحدة فقط بهذه الطريقة ثم

لايحدث بعدها أبداً. وهذا ما يجعل قصة كل إنسان هامة وخالدة ومقدسة، وهذا ما يجعل كل إنسان، طالما أنه يعيش وينفذ إرادة الطبيعة، مدهشاً وجديراً بكل تقدير. في كل فرد تحولت الروح إلى لحم، وفي كل إنسان يعاني الخلق، وفي أعماق كل شخص يُثبَّت الفادي على الصليب بالمسامير.

قلة من الناس، في أيامنا هذه، يعرفون ما هو الإنسان. وكثيرون يحسون بهذا الجهل فيموتون بسببه، بسهولة كبيرة، وبالطريقة ذاتها التي سأموت بها حالما أكمل هذه القصة.

وأنا لاأعتبر نفسي أقل جهلاً من معظم الناس. لقد كنت، ومازلت، باحثاً. لكنني توقفت عن توجيه أسئلتي إلى النجوم والكتب؛ وبدأت أصغي إلى التعاليم التي يهمس لي بها دمي. وقصتي ليست قصة مفرحة. فهي ليست بالقصة الحلوة أو المتوافقة، كما هو الحال في القصص المخترعة؛ إن لها طعم الهراء والتشوش، طعم الجنون والأحلام - مثل حياة كل من يتوقف عن خداع نفسه.

حياة كل إنسان عبارة عن طريق نحو نفسه، محاولة على طريق كهذا، تلميح نحو الممر. لم يسبق لإنسان أن كان نفسه تماماً وبشكل كامل. لكن كل إنسان يحاول ذلك - هذا بطريقة خرقاء وذاك بطريقة بارعة؛ كل حسب ما يستطيع. وكل إنسان يحمل آثار ولادته - لُزوجة ماضيه البدائي وقشوره - وتظل معه حتى آخر أيامه. هناك من لايصير بشراً أبداً، يظل ضفدعاً، سحلية أو نملة. وهناك من هو إنسان في نصفه الأعلى وسمكة في نصفه الأسفل. كل إنسان يمثل مقامرة من قبل الطبيعة لخلق إنسان. إن لنا جميعاً أصلاً واحداً هو أمهاتنا؛ وجميعنا جئنا من الباب ذاته. لكن كلاً منا - بخبرات الأعماق - يجاهد للوصول إلى مصيره. يستطيع كل منا أن يفهم الآخر؛ لكن أياً منا لايستطيع أن يشرح نفسه إلا لنفسه.

1

عالمان

سأبدأ قصتي بتجربة حدثت معي وأنا في العاشرة عندما كنت في المدرسة اللاتينية في بلدتنا الصغيرة.

ماتزال حلاوة أمور عديدة في ذلك الحين تثير فيَّ الأسى؛ حارات معتمة وأخرى حسنة الإضاءة، بيوت وأبراج، أجراس ووجوه، غرف مترفة ومريحة، دافئة ومسترخية، غرف حبلى بالأسرار. كل شيء يحمل أريج الألفة الدافئة، والخادمات والأدوية المنزلية والفواكه المجففة.

عالما الليل والنهار، عالمان مختلفان جداً قادمان من قطبين متقابلين، وممتزجان في ذلك الحين. كان بيت والديَّ يشكل عالماً؛ لكن حدوده ضيقة، فهي لاتضم سوى الوالدين. وكان هذا العالم أليفاً بالنسبة لي في كل شيء تقريباً ـ أم وأب، حب وصرامة، سلوك مثالي ومدرسة. عالم من البهاء والنقاء والنظافة والأحاديث اللطيفة والأيدي المغسولة والملابس النظيفة والأخلاق الحميدة. ذلك هو العالم الذي كانت تُنشد فيه أناشيد الصباح ويحتفل فيه بأعياد الميلاد. خطوط وممرات مستقيمة تقود نحو المستقبل؛ كان هناك الواجب والذنب، الضمير الرديء والاعتراف، الغفران والقرارات الصائبة، الحب والاحترام والحكمة وكلمات الإنجيل. فإذا كان المرء راغباً في حياة نظيفة ومنتظمة فإنه واثق من تحقق ذلك في الارتباط بهذا العالم.

إلا أن العالم الآخر، الذي يتجاوز نصف بيتنا، كان مختلفاً جداً، رائحته مختلفة، ولغته مختلفة، يعد ويطالب بأمور مختلفة. كان هذا العالم الثاني يضم الخادمات والعمال وقصص الأشباح وشائعات المباذل. يسيطر عليه مزيج صاخب من الأشياء المريعة والخادعة والمخيفة والغامضة وبينها المسالخ والسجون، السكارى وبائعات السمك الصاخبات، بقرات تلد عجولاً، وخيول تموت غرقاً، وحكايات عن اللصوصية والقتل والانتحار. هذه الأمور الهمجية والشرسة، الجذابة والبشعة التي كانت تحيط بنا كان من الممكن العثور عليها في الحارة المجاورة وفي البيت المجاور. شرطة ومومسات، سكارى يضربون زوجاتهم، أفواج من الفتيات يتدفقن من المصانع ليلاً، عجائز يعلقن التعويذة عليك لكي لا تمرض، لصوص يختبئون في الغابة، مشاغبون من محرقي البيوت تعتقلهم شرطة الأرياف، في كل مكان كان هذا العالم الثاني العنيف يبرز وتفوح رائحته، في كل مكان ما عدا في غرف والدينا. وكان هذا حسناً. وكان من المدهش أن السكينة والنظام والضمير الصالح المرتاح والتسامح والحب هي التي تسود في هذا العالم كما كان من المدهش أن البقية موجودة أيضاً، تفاقم الضجيج الفظ والنكد والعنف، الأمور التي يستطيع المرء أن يتجنبها، كلها، بقفزة إلى حضن الأم.

غريب كم كان العالمان متجاورين ومتلاصقين! فمثلاً حين كانت لينا، خادمتنا، تجلس معنا على باب حجرة الجلوس عند صلوات المساء وتضيف صوتها إلى الترنيمة، ويداها المغسولتان ملفوفتان في مئزرها المكوي، فإنها كانت تنتمي إلينا مع الأب والأم؛ إلى أولئك الذين يعيشون في النور والفضيلة. أما حين كانت، بعد ذلك، في المطبخ أو في سقيفة الحطب، تحكي لي حكاية «السنفور(*) الذي لا رأس له» أو حين كانت تتجادل مع نساء الجيران في دكان اللحام فقد كانت شخصاً آخر تنتمي إلى عالم آخر يغلفها بالغموض. وهكذا كان كل شيء وخاصة أنا. كنت أنتمي إلى عالم النور والفضيلة. كنت ابن والديَّ.

(*) المقصود الشخص الصغير جداً جداً.

ولكن أنّى تحولت كنت أرى العالم الآخر، وكنت أعيش في هذا العالم الآخر أيضاً على الرغم من أنني كنت غريباً فيه وكنت أعاني فيه من الرعب ومن عذاب الضمير. وفي بعض الأحيان كنت أفضل أن أعيش في العالم الممنوع، وكانت العودة بين حين وآخر إلى عالم النور - لأنه يمكن أن يكون ضرورياً وطيباً - أشبه بالعودة إلى شيء أقل جمالاً، شيء رتيب ومضجر. كنت، أحياناً، أثق ثقة مطلقة أن قدري هو أن أصبح مثل أمي وأبي، ذا رؤية واضحة ونقياً منتظماً ومتفوقاً مثلهما. لكن هذا الهدف كان يبدو بعيداً جداً، وكان الوصول إليه يعني الدخول في مدارس لانهاية لها والدراسة وتقديم الامتحانات والاختبارات والنجاح فيها. وهذا الطريق لابد له أن يمر عبر العالم الآخر المعتم. ولم يكن من المستحيل على المرء أن يبقى جزءاً منه وأن يغرق فيه. كانت هناك قصص عن أولاد ضالين، وهي قصص كنت أقرأها بشغف. وكانت هذه القصص، دائماً، تصور العودة إلى البيت نوعاً من الخلاص وأنه أمر استثنائي حتى اقتنعت بأن هذا وحده هو الأمر الصحيح والأفضل والمطلوب. ولكن الجزء من القصة الذي يتعلق بالتواجد وسط الشر والضياع كان أكثر جاذبية، وأحياناً - لو استطعت الاعتراف - لم أكن أريد للابن الضال أن يندم وأن يتم العثور عليه من جديد. لكن المرء لايجرؤ على التفكير في أمر كهذا، ولايجرؤ، أكثر من ذلك، على البوح به. كان حاضراً كهاجس، أو كاحتمال في أعماق الوعي. وحين كنت أصور الشيطان لنفسي كنت أستطيع بسهولة أن أتخيله في الشارع تحتنا، مقنّعاً أو دون قناع، أو في معرض الريف أو في بار ولكنه لم يكن أبداً معنا في البيت.

أخواتي، أيضاً، كنت ينتمين إلى عالم النور. وكثيراً ما كان يبدو لي أن لديهن انجذاباً طبيعياً أكبر نحو أبي وأمي. كن أفضل مني، أفضل أخلاقاً ولديهن أخطاء أقل. كانت لهن أخطاؤهن بالطبع؛ ولديهن لحظات الطيش، لكنها لم تكن تبدو لديهن عميقة كما هو الأمر بالنسبة لي أنا الذي صارت علاقته بالشر تزداد لتصبح ضاغطة ومؤلمة، والذي كان العالم المعتم يبدو أقرب إليه. الأخوات، مثل الوالدين، يجب أن تتوافر لهن الراحة والاحترام - وإذا ما تشاجرت معهن فقد كنت ألوم

نفسي دائماً في ما بعد، وأحس بأنني المتسبب وبالتالي الطرف الذي عليه أن يطلب السماح. فبإزعاج أخواتي كنت أزعج والديَّ وأزعج كل ما هو خيِّر وسام. كانت هناك أسرار يمكن أن أبوح بها لأحط أنواع المجرمين ولا أبوح بها لأخواتي. وفي الأيام الجميلة، التي لم يكن فيها ضميري يزعجني، كان من الممتع حتى أن ألعب معهن وأن أكون طيباً ومهذباً مثلهن وأن أرى نفسي في النور الكريم. وهذا ما لابد أن يعنيه كونك ملاكاً. إنها أسمى حالة يمكن أن تخطر للمرء. ولكن كم كانت هذه الأيام قليلة. فحتى في اللعب، في النشاط غير المؤذي، كنت أتحول إلى شخص شديد الحماس والجموح بحيث أصبح مرهقاً لأخواتي. وكانت الشجارات والتعاسات التي تؤدي إليها هذه الحالة تدفعني إلى هياج أصبح معه مخيفاً أفعل وأقول أموراً شريرة تزيد في قسوة قلبي حتى وأنا أقولها. ثم تأتي ساعات قاسية من الندم الحزين والأسف، واللحظة المؤلمة التي أطلب فيها الصفح لتأتي بها أشعة النور، والسرور الهادئ الشكور المتكامل.

كنت في المدرسة اللاتينية. وكان ابن المحافظ وابن مدير الحراج في صفي. وكانا يأتيان أحياناً لزيارتي في بيتي، وعلى الرغم من أنهما كانا عنيدين جامحين إلا أنهما كانا من أعضاء العالم الخير والشرعي. غير أن هذا لايعني أنه لم تكن لي علاقات بأبناء الجيران الذين يذهبون إلى المدرسة الشعبية والذين كنا ننظر إليهم من علٍ. وبواحد من هؤلاء يجب أن أبدأ قصتي.

في أحد أيام العطل ـ كنت أقترب من العاشرة من العمر ـ كنت أتجول مع ولدين من أبناء الجيران عندما انضم إلينا ابن الخياط. وهو ولد أكبر منا بكثير وقوي وفظ. كان والده يسكر. ولعائلته كلها سمعة سيئة. كنت قد سمعت الكثير عن فرانز كرومر وكنت أخافه ولم أكن أحب أبداً أن ينضم إلينا. كانت طباعه طباع رجل. وكان يقلد عمال المصنع في مشيتهم وحديثهم. وتحت قيادته نزلنا إلى ضفة النهر قرب الجسر واختبأنا تحت القنطرة الأولى. ولم يكن في الممر الضيق بين الجدار المعقود للجسر والنهر الجاري بتكاسل إلا النفايات والحراشف وكبب شائكة من الأسلاك الصدئة والفضلات الأخرى. بين حين وآخر

كان من الممكن التقاط شيء ما مفيد هناك. وأمرنا فرانز كرومر أن نمشط المنطقة ونجلب له ما نعثر عليه. وكان يضع ما نقدمه له في جيبه أو يلقي به إلى النهر. طلب إلينا أن نبحث عن أشياء مصنوعة من الرصاص أو النحاس أو التنك كان يتلقفها منا، وبينها مشط عتيق مصنوع من قرن. كنت أحس بالضيق من وجوده، ليس فقط لأنني كنت أعرف أن أبي لن يوافق على رؤيتي معه؛ بل، ببساطة، لأنني كنت خائفاً من فرانز نفسه وذلك على الرغم من أنني كنت مسروراً من قبوله لي ومعاملته لي كالآخرين. كان يعطي التعليمات ونحن نطيع، وبدا كما لو أن الأمر كان مألوفاً منذ زمن بعيد على الرغم من أنها المرة الأولى التي أكون فيها معه.

بعد فترة من الزمن جلسنا. وبصق فرانز في الماء، وكان يبدو مثل رجل. كان يبصق من خلال ثغرة بين أسنانه فيصيب أي شيء يسدد إليه. وبدأ الحديث وراح الأولاد يتباهون ويكومون المدائح لأنفسهم على كافة بطولات أولاد المدارس وحيلهم التي كانوا يقومون بها. ظللت هادئاً وظللت خائفاً من أن ينتبهوا إلي، ومن أن يثير صمتي غضب كرومر. كان صديقاي قد بدآ يتجنبانني في اللحظة التي انضم فيها إلينا فرانز كرومر. كنت غريباً بينهم وكنت أحس أن طباعي وملابسي تشكل تحدياً. فكتلميذ في المدرسة اللاتينية، كابن مدلل لأب حسن الحال، سيكون من المستحيل على فرانز أن يحبني، وشعرت بدقة أن الاثنين الآخرين سرعان ما سيتخليان عني ويهجرانني.

وأخيراً، وانطلاقاً من العصبية وحدها، بدأت أحكي قصة مثلهم. اخترعت قصة طويلة عن سرقة قمت فيها بدور البطل. قلت لهم إنني في حديقة قرب المطحنة، وبرفقة أحد الأصدقاء، قمت بسرقة ما ملأ حقيبة من التفاح ذات ليلة، وأنه لم يكن تفاحاً عادياً بل من أحسن الأنواع. خوف اللحظة ذاتها هو الذي ألجأني إلى هذه القصة، فاختراع القصص وسردها أمران يأتيانني بسهولة. ولكي لاأعود بشكل مفاجئ إلى الصمت، وربما أغرق في ما هو أسوأ، قدمت عرضاً كاملاً لقدراتي السردية. وتابعت: بأنه كان على واحد منا أن يقف للحراسة بينما يتسلق الآخر الشجرة ويهزها لكي يسقط التفاح. وأكثر من ذلك صارت

الحقيبة ثقيلة جداً مما اضطرنا لفتحها ثانية وترك نصف التفاح وراءنا. ولكن بعد نصف ساعة عدنا وأخذنا البقية.

وحين انتهيت رحت أنتظر موافقة من أي نوع كان. لقد تحمست للموضوع حتى نهايته ونقلتني فصاحتي بعيداً. ظل الصغيران صامتين ولكن فرانز كرومر تطلع إليّ بحدة بعينيه الضيقتين وسألني مهدداً:

ـ هل هي صحيحة؟

ـ نعم. أجبته.

ـ صحيحة وحقيقية؟

ـ نعم. صحيحة وحقيقية. قلت مصراً بعناد بينما كنت أغص بالخوف في أعماقي.

ـ هل تقسم على ذلك؟

ازداد خوفي فقلت: نعم.

ـ قل إذن: وحق الله وبركة روحي.

ـ وحق الله وبركة روحي. قلت.

قال: طيب، والتفت عني.

ظننت أن المسألة قد سُويت وسررت حين نهض والتفت ينوي الذهاب إلى بيته، وبعد أن تسلقنا الجسر عائدين قلت، متردداً، إنني أود التوجه إلى بيتي وحيداً.

ضحك فرانز وقال: لايمكن أن تكون مستعجلاً بهذا المقدار. نحن ذاهبون في الاتجاه ذاته. أليس كذلك؟.

راح يمشي متمهلاً ولم أجرؤ على الإسراع. وكان، في الحقيقة، يتوجه نحو بيتي. وحين وقفنا أمامه ورأيت المدخل والمطرقة النحاسية الكبيرة، والشمس في النوافذ والستارة في غرفة أمي تنفست الصعداء.

وحين فتحت الباب بسرعة وانسللت منه وأغلقته خلفي تسلل فرانز كرومر ورائي. وفي الممر القرميدي البارد المواجه للباحة وقف إلى جانبي وأمسك بي قائلاً: لاتكن متعجلاً هكذا.

تطلعت إليه مذعوراً. كانت قبضته على ذراعي مثل الملزمة. استغربت ما الذي يمكن أن يكون قد دار في ذهنه وما إذا كان يمكن أن يؤذيني. وحاولت أن أتخذ قراري عما إذا كنت سأصرخ الآن؛ لو صرخت بحدة وبصوت عال فقد يأتي أحدهم من الأعلى وبسرعة تكفي لإنقاذي.

وسألته: ما الأمر؟ ماذا تريد؟

- لاشيء هام. أردت فقط أن أسألك عن شيء. يجب أن لايسمعه الآخرون.

- صحيح؟ لا أظن أن لدي شيئاً أقوله لك. أنت تعرف. عليَ أن أصعد.

وبنعومة سألني فرانز كرومر: أنت تعرف من يملك البستان المجاور للمطحنة، ألا تعرف؟

- لست متأكداً. الطحان على ما أظن.

كان فرانز قد أحاطني بذراعه وشدني إليه بحيث اضطررت أن أحدق إلى وجهه على بعد إنشات. كانت عيناه تنضحان بالشر، وابتسم ابتسامة حاقدة. وامتلأ وجهه بالقسوة وبإحساس بالقوة قال: أستطيع أن أخبرك من هو صاحب البستان. كنت أعرف منذ فترة أن هناك من سرق التفاح من هناك وقد قال الرجل الذي يملك البستان أنه سيعطي ماركين لأي شخص يخبره عمن سرقه.

وهتفت: يا إلهي. لن تفعل ذلك. هل ستخبره؟

شعرت أنه ليس مجدياً الاعتماد على شرفه. لقد جاء من العالم الآخر. والوشاية ليست جريمة بالنسبة له. أحسست بذلك بدقة. فالناس في العالم الآخر ليسوا مثلنا في هذه الأمور.

ضحك كرومر: لا أقول شيئاً؟ يا ولد. ماذا تظنني؟ هل تظن أن لدي معمل نقود؟ أنا فقير. وليس لدي أب غني مثل أبيك. وإذا كنت أستطيع أن أكسب ماركين فإنني سأكسبهما بأية طريقة أستطيع، بل ربما كان سيعطيني أكثر.

وتركني بغتة. ولم يعد الممر يوحي بالأمان والطمأنينة. بدأ العالم المحيط بي يتقوض. سيسلمني للشرطة! أنا مجرم. وسيتم إبلاغ والدي، بل ربما جاءت الشرطة نفسها. إن رهبة التشوش تتهددني. كل ما هو بشع وخطر يتوحد ضدي. لم يعد يعني شيئاً كوني لم أسرق شيئاً. لقد أقسمت أنني فعلت.

وتدفقت الدموع من عيني. وأحسست أن علي أن أعقد صفقة. ورحت أفتش جيوبي متلهفاً. لم تكن معي أية تفاحة أو سكين جيب. ليس معي أي شيء على الإطلاق. وفكرت بساعتي، ساعة فضية قديمة لم تكن تعمل وكنت ألبسها لمجرد اللهو. كانت ساعة جدتي. وخلعتها بسرعة.

قلت: كرومر. اسمع. لاتش بي. لن يكون لطيفاً منك أن تفعل ذلك. سأعطيك ساعتي كهدية. ها هي. انظر إليها. ليس لدي أي شيء غيرها. تستطيع أن تأخذها. إنها من الفضة. أما عن دورانها. فهناك عطل صغير فيها. سيكون عليك أن تثبتها.

ابتسم وهو يزن الساعة في كفه. تطلعت إلى يده وشعرت كم هي وحشية وعدائية تجاهي، وكيف أنها تستطيع أن تنال من حياتي وطمأنينتي.

قلت متردداً: إنها من الفضة.

قال باحتقار: لست مهتماً بساعتك القديمة والفضية. خذها وثبتها لنفسك.

وهتفت وأنا ارتعد خوفاً من أن يهرب: ولكن يا فرانز... انتظر. انتظر لحظة. لم لاتأخذها؟ إنها فعلاً من الفضة. بشرفي. وليس لدي أي شيء غيرها.

ألقى علي بنظرة احتقار باردة: أنت تعرف إلى أين أستطيع أن أذهب. أو ربما ذهبت إلى الشرطة... إن علاقتي جيدة بالرقيب.

والتفت كأنه ينوي الذهاب. فتمسكت بكمه. لم يكن في وسعي أن أسمح له بالذهاب... أفضل أن أموت على أن أواجه ما قد يحدث لو أنه ذهب الآن.

وتوسلت إليه بصوت جعله التوتر أجش: فرانز! لاتقم بأي عمل طائش. إنك تمزح فقط. أليس كذلك؟

ـ نعم. أنا أمزح. لكنها قد تصبح مزحة باهظة الثمن.

ـ قل فقط ما المفروض أن أفعله يا فرانز. سأفعل أي شيء تطلبه.

تملاني صعوداً ونزولاً بعينيه الضيقتين ثم ضحك مرة أخرى وقال بمرح زائف: لاتكن غبياً. أنت تعرف، كما أعرف، أنني في وضع يمكنني من كسب ماركين وأنا لست الغني الذي يستطيع أن يتخلى عنهما، ولكن أنت غني، حتى أن لديك ساعة. كل ما عليك أن تفعله هو أن تعطيني ماركين. وعندها ينتهي الأمر.

فهمت حجته. ولكن ماركان! هذا مبلغ كبير وصعب الحصول عليه مثل العشرة والمئة والألف. ليس معي بفنغ(*) واحد. وكانت لدي حصالة تحتفظ أمي بها لي. وحين كان الأقرباء يأتون لزيارتنا يلقون فيها بقطع من ذات الخمسة أو العشرة بفنغات. هذا كل ما لدي. ولم يكن لي مصروف مخصص في ذلك الحين.

قلت بحزن: ولكن ليس معي شيء. ليس معي مال أبداً. سأعطيك كل شيء لدي. لدي قصص كاوبوي، وجنود من المعدن وبوصلة. انتظر. سأجلبها لك.

ولم يفعل كرومر شيئاً سوى أن برم فمه بنخرة قصيرة. ثم بصق على الأرض.

وبفظاظة قال: أبقِ تفاهاتك معك. بوصلة! لاتجنّني. هل تسمع؟ أنا أسعى إلى المال.

ـ ولكن ليس معي، ولم يسبق أن كان معي. لايد لي في الأمر.

ـ طيب. ستجلب الماركين غداً إذن. سأنتظرك بعد المدرسة قرب السوق. انتهى الموضوع. وسترى ما سيحدث إن لم تجلبهما.

ـ ولكن من أين سأحصل عليهما إن لم يكن معي؟

(*) جزء من المئة من المارك.

- يوجد الكثير من المال في منزلكم. وهذه مشكلتك. غداً، وبعد المدرسة. وأقول لك: إن لم تجلبهما معك... وألقى عليّ نظرة ناعسة ثم بصق مرة أخرى واختفى كأنه خيال.

لم أستطع حتى الصعود على الدرج. لقد تحطمت حياتي. فكرت في الهرب وعدم الرجوع أو إغراق نفسي. إلا أنني لم أستطع أن أتمثل أياً منهما بوضوح. وفي الظلام جلست في أسفل السلم، أقلب الأمر وقد أسلمت نفسي للبؤس. وهناك عثرت عليّ لينا وأنا أبكي فيما كانت نازلة ومعها سلة لجلب الحطب.

توسلت إليها أن لاتشي بي ثم صعدت السلم. إلى يمين الباب الزجاجي عُلِّقت قبعة والدي ومظلة والدتي الشمسية. كانتا تمنحانني إحساساً بالبيت والراحة فيخفق لهما قلبي شاكراً مثلما يمكن للابن الضال أن يحيّي منظر الغرف القديمة الأليفة ورائحتها. ولكن هذا كله ضاع مني الآن. كله ينتمي إلى عالم أبي وأمي الواضح الوضاء؛ وأنا، المدان الغارق في أعماق العالم الغريب الآخر، والواقع في شرك المغامرات والخطيئة يطاردني عدو - أخطار ومخاوف وخزي. القبعة والمظلة والباب ذو الحجر الرملي الذي كنت مغرماً به، والصورة الكبيرة المعلقة فوق خزانة الصالون، وصوت أختي الكبرى الذي يأتيني من غرفة الجلوس... هذا كله صار أكبر تأثيراً ولذة مما سبق أن كان عليه. لكن هذا كله لم يعد ملجأ أو مستنداً يُعتمد عليه... صار هذا كله تأنيباً واضحاً، لم يعد في هذا كله شيء يخصني ولم أعد قادراً على المشاركة في البهجة المريحة التي يشيعها. وكانت قدماي موحلتين فلم أستطع حتى مسحهما بالممسحة. وحيثما أذهب تتبعني عتمة لم يكن هذا العالم البيتي يعرف عنها شيئاً، كم من الأسرار صار لدي؛ وكم تعرضت للخوف، ولكن ذلك كله كان لعب أولاد بالمقارنة مع ما جاء معي، اليوم، إلى البيت. كانت التعاسة تتملكني وتطاردني؛ وحتى أمي لم تكن قادرة على حمايتي خاصة وأنها لم تكن قادرة على أن تعرف شيئاً عن الموضوع. وسواء كانت جريمتي هي السرقة أم الكذب (ألم أحلف بالله وبكل ما هو مقدس يميناً كاذبة؟) فهي جريمة روحية. لم تكن جريمتي شيئاً محدداً في هذا الأمر أو ذاك بل في أنني صافحت

الشيطان. لم ذهبت؟ لم أطعت كرومر، أكثر مما أطعت حتى أبي؟ لم اخترعت القصة فألصقت بنفسي جريمة وكأنني أدعي بطولة؟ لقد أمسك الشيطان بي بين براثنه، والعدو يطاردني الآن.

حتى الآن لم أكن خائفاً مما قد يحدث غداً مثلما كنت خائفاً من اليقين المرعب من أن طريقي، من الآن فصاعداً، سيقودني أعمق فأعمق في عالم الظلمة. وشعرت بأن ذنوباً جديدة لابد لها أن تنبع من هذا الذنب، وأن وجودي بين أخواتي، وتحيتي لوالديَّ، وقبلاتي لهما مجرد كذبة، وبأنني أعيش كذبة مخبأة في أعماقي.

لفترة قصيرة تصاعد الأمل والثقة في نفسي وأنا أنظر إلى قبعة والدي. سأقول له كل شيء وسأتقبل حكمه وعقوبته وسأجعله مخلصي ومتلقي اعترافاتي. لن يكون الأمر إلا كفارة من النوع الذي طالما اضطررت إليه؛ الساعة المرهقة والطلب الصعب المؤسف للصفح.

كم كان هذا يبدو سهلاً ومغرياً، ولكنه غير مجدٍ. كنت أعرف أنني لن أقوم بذلك. وكنت أعرف أن لدي الآن سراً، خطيئة سيكون عليّ التكفير عنها بنفسي. ربما كنت أقف على مفترق طرق، وربما كنت قد انتميت، كلياً وإلى الأبد، للأشرار، أشاركهم أسرارهم وأتكل عليهم وأطيعهم وصار لزاماً عليّ أن أصبح واحداً منهم. لقد مثلت دور الرجل والبطل. وعليّ الآن أن أتحمل النتائج.

سررت حين وبخني والدي بسبب حذائي الموحل. لقد حول هذا الأمر انتباهه، نحو تجنب المشكلة الحقيقية ووضعي في حالة تلقي التأنيب الذي كنت أحوله سراً إلى الذنب الآخر الأكثر خطورة وجدية. ومن هذه الزاوية سيطر عليّ إحساس جديد وغريب كان يخزني بشكل ممتع: وهو أنني متفوق على والدي! وللحظة أحسست بشيء من القرف من جهله. فتوبيخه لي على حذائي الموحل كان أمراً يدعو إلى الرثاء. «آه لو كنت تعرف». عبرت الفكرة في ذهني مثل مجرم يستجوب من أجل رغيف مسروق بينما هو قد ارتكب جريمة قتل. كان شعوراً عدائياً كريهاً، لكنه شعور قوي وجذاب يشدني نحو سري وذنبي. وخطر لي أن كرومر ربما قد ذهب إلى الشرطة الآن وأبلغ عني، وأن زوابع تتجمع الآن فوق رأسي بينما هم يعاملونني الآن وكأنني طفل.

كانت هذه اللحظة أكثر أهمية وأشد رسوخاً من كل ما في التجربة. إنها أول صدع في صورة أبي الشاملة، وأول تشقق في الأعمدة التي تقوم عليها طفولتي؛ الأعمدة التي يجب على كل إنسان أن يهدمها قبل أن يصير نفسه. إن الخط الداخلي الأساسي لمصيرنا يشتمل على تجارب شبيهة غير مرئية. وهذه التصدعات والشقوق تتجمع وتشفى ثم تنسى، ولكن في الأعماق الخفية تظل حية وتظل تنزف.

وسرعان ما خفت من هذا الشعور حتى أوشكت على الوقوع أمام والدي لتقبيل قدميه طالباً السماح. لكن الإنسان لايستطيع أن يعتذر عن أمر جوهري. والطفل يشعر بذلك ويعرفه مثله مثل أي شيخ حكيم.

شعرت بالحاجة للتفكير في وضعي الجديد، ودراسة ما سأفعله غداً، لكنني لم أجد الوقت. طوال المساء كنت منشغلاً في التعود على الجو المتغير في غرفة الجلوس. ساعة الجدار والطاولة والانجيل والمرآة وخزانة الكتب والصور على الجدار، كلها كانت تخلفني وراءها. كنت مجبراً على أن أرقب، برعشة في قلبي، كيف أن عالمي وحياتي الطيبة السعيدة الخالية من الهموم قد صارت جزءاً من الماضي، وقد أخذت تتحطم لتنفصل عني وكنت مضطراً لتحسس الكيفية التي كنت أُقَيِّدُ بها وأنشدّ بجذور جديدة نحو الخارج، نحو العالم المعتم الغريب. وللمرة الأولى في حياتي عرفت طعم الموت وكان له طعم مر. فالموت ولادة وخوف، ورهبة من التجدد المخيف.

أحسست بالسعادة لتمددي، أخيراً، في فراشي. قبل ذلك مباشرة، وكآخر تعذيب لي، كان عليّ أن أتحمل صلاة المساء. أنشدنا ترنيمة كانت مفضلة لدي. ولكنني شعرت بالعجز عن المشاركة وصارت كل نغمة فيها تستفزني. وعندما ترنم والدي بالمباركة ـ عندما انتهى بـ «وليكن الله معنا» ـ تكسر شيء في أعماقي وانتُبذت إلى الأبد من هذه الدائرة الأليفة. كانت رحمة الله معهم جميعاً لكنها لم تعد معي. تركتهم وأنا أحس بالبرودة والانهاك.

عندما استلقيت في فراشي ولفني الدفء والأمان فيه عاد قلبي الخائف مرة أخرى إلى تشوشه وراح يهوّم بقلق فوق ما صار الآن

ماضياً. ودعتني أمي وداعها المسائي المألوف. وكنت ماأزال أسمع خطواتها في الغرفة الأخرى وكان ضوء المصباح مايزال يتسرب من شقوق الباب. وقلت لنفسي، الآن ستعود مرة أخرى، لقد أحسّت بشيء ما. ستقبّلني وتسألني. تسألني بلطف وبوعد في صوتها. وعندها سوف أبكي فتذهب الغصة من حلقي وألقي بذراعيّ حولها وتصبح الأمور على خير ما يرام. أكون قد نجوت. وحتى بعد أن أظلمت شقوق الباب ظللت أصغي وأنا واثق من أن ذلك لابد أن يحدث ببساطة.

ثم عدت إلى متاعبي وتطلعت إلى عدوي في عينيه. كنت أستطيع رؤيته بوضوح. إحدى عينيه تدور وفمه ملوي بابتسامة وحشية. ولكنني وأنا أنظر إليه، وأزداد اقتناعاً بالمحتوم، كان يكبر ويزداد بشاعة وعينه الشريرة تلتمع بوميض شيطاني. وظل إلى جانبي حتى نمت. إلا أنني لم أحلم به ولابما حدث ذلك اليوم. بدلاً من ذلك حلمت أن والدي وأخواتي وأنا نبحر في قارب ويحيط بنا هدوء شامل مع راحة العطلة. وفي منتصف الليل استيقظت وطعم تلك السعادة مايزال عالقاً بي. كنت ما أزال قادراً على رؤية ثياب أخواتي الصيفية البيضاء وهي تتلامع تحت الشمس عندما سقطت من ذلك الفردوس عائداً إلى الواقع، ومن جديد، وجهاً لوجه مع العدو بعينه الشريرة.

في صباح اليوم التالي، حين اندفعت أمي صارخة أنني تأخرت ومتسائلة عما يبقيني في فراشي بدوت كالمريض. وحين سألتني عما ألم بي تقيأت.

بدا لي هذا مكسباً، كنت أحب أن أمرض مرضاً خفيفاً وأن يُسمح لي بالتمدد في الفراش طوال الصباح وأنا أشرب البابونج وأتطلع إلى أمي وهي ترتب الغرف الأخرى أو إلى لينا وهي تجادل اللحّام في الرواق. كانت الصباحات التي لاتقضى في المدرسة ساحرة كحكايات الجان؛ الشمس التي تلعب في الغرفة ليست هي ذاتها الشمس المبعدة خارج المدرسة حين تنخفض الظلال الخضراء. إلا أنه حتى ذلك لم يمنحني الغبطة في ذلك اليوم فهناك شيء مزيف في الأمر.

آه لو أنني أستطيع أن أموت! ولكن، وكما كان يحدث غالباً، لم

أكن إلا متوعكاً قليلاً. ولم يكن الأمر مجدياً. فمرضي قد حماني من المدرسة ولكن ليس من فرانز كرومر الذي سيكون بانتظاري في الحادية عشرة في السوق. وتودد أمي، بدل أن يريحني، كان مصدر إزعاج مرهق. تظاهرت بالنوم مجدداً لكي أُترك وحدي وأفكر. ولكنني لم أستطع أن أجد مَخرجاً. في الحادية عشرة يجب أن أكون في السوق. ارتديت ملابسي في العاشرة وقلت إنني أشعر بتحسن. وكان الجواب، كما هي العادة في مثل تلك الظروف، هو أن عليّ أن أعود إلى السرير أو أذهب بعد الظهر إلى المدرسة. فقلت إنني سأذهب إلى المدرسة بسرور. وكنت قد توصلت إلى خطة.

لم يكن في مقدوري مواجهة كرومر وأنا مفلس. كان عليّ أن أصل إلى حصالتي وكنت أعرف أنها لاتحتوي على ما يكفي لكن فيها شيئاً ما على الأقل. وقد خمنت أن شيئاً ما أفضل من لاشيء وأن كرومر يمكن تهدئته.

بجواربي تسللت إلى غرفة أمي وأخذت الحصالة من درجها. لكن هذا لم يكن مربكاً نصف الإرباك الذي وقع لي يوم أمس مع كرومر. كان قلبي يخفق بعنف وبشدة وأحسست أنني أوشك على الاختناق، ولم يهدأ حين اكتشفت، وأنا تحت السلم، أن الحصالة مقفلة. كان من السهل خلعها؛ فالأمر لايتطلب إلا تمزيق القشرة التنكية الرقيقة لكن تحطيمها مؤذ ـ الآن فقط كنت أقترف السرقة. قبل ذلك كنت أختلس قطعاً من السكر أو بعض الفاكهة؛ أما هذه فسرقة أكثر جدية على الرغم من أنني كنت أسرق نقودي. وأدركت أنني صرت على بعد خطوة واحدة من كرومر وعالمه؛ وكيف أن كل ما يتعلق بي كان ينحدر تدريجياً إلى الأسفل. أخذني العناد: فليأخذ الشيطان ما تبقى. لم يعد هناك مجال للتراجع الآن. أحصيت النقود بعصبية. حين كانت في الحصالة كانت توحي أنها أكثر مما هي عليه، لكن ما صار في يدي كان قليلاً بشكل مؤلم. خمسة وستون بفنغاً. خبأت العلبة في الأرض وأطبقت كفي على النقود. وحين خرجت من البوابة كنت أشعر شعوراً مختلفاً عن أي شعور سابق. خيل إليّ أن هناك من يناديني من فوق السلم لكنني ابتعدت مسرعاً.

كان مايزال هناك وقت طويل. وفي طريق متعرج تسللت عبر الحارات الصغيرة في المدينة المتغيرة، تحت سماء غائمة لم أر مثلها من قبل، فيما البيوت والناس يتطلعون إليّ متشككين. ثم خطر لي أن أحد زملائي في المدرسة قد عثر في سوق الماشية ذات يوم على طالير(*). كنت مستعداً للركوع بسرور والصلاة لله لكي يحقق معجزة ويجعلني أعثر على شيء مشابه لكنني كنت قد فقدت الحق في الصلاة. وفي كل الأحوال سيتطلب إصلاح العلبة معجزة أخرى.

رآني فرانز كرومر من بعد. إلا أنه اقترب مني دون تعجل وبدا وكأنه يتجاهلني. وحين اقترب أشار إليّ بتسلط أن أتبعه. ودون أن يلتفت وراءه مرة واحدة نزل بهدوء إلى «ستروغاس» ثم عبر جسراً صغيراً للمشاة حتى توقف أمام بناء جديد في ظاهر المدينة. لم يكن حولنا عمال. وكانت الجدران عارية. كما أن الأبواب والنوافذ كانت غير مدهونة. تطلع كرومر حوله ثم مشى عبر المدخل إلى المنزل وأنا أتبعه. توقف وراء أحد الجدران وأشار لي وهو يمد يده.

سألني ببرود: هل جلبت؟

سحبت قبضتي المنغلقة من جيبي وأفرغت النقود في راحته الممدودة. عدَّها قبل أن يسقط آخر بفنغ في يده.

ـ خمس وستون بفنغاً. قال وهو يتطلع إليّ.

ـ نعم. قلت متوتراً. هذا كل ما لدي. أعرف أنه ليس كافياً. لكن هذا كل ما لدي.

قال مؤنباً بشيء من اللطف: كنت أظن أنك أشطر من ذلك. حين تكون بين أناس شرفاء عليك أن تتصرف التصرف الصحيح. أنا لاأريد أن آخذ منك شيئاً ما لم يكن هو المبلغ المطلوب. أنت تعرف ذلك. خذ فلوسك. ها هي. الشخص الآخر ـ وأنت تعرف من هو ـ لن يحاول تخفيض المبلغ. إنه يدفع زيادة.

ـ ولكن ببساطة ليس عندي أي بفنغ آخر. هذا كل ما لدي في حصالتي.

(*) قطعة نقدية ألمانية فضية قديمة.

ـ هذا شأنك. أنا لاأريد أن أزعجك. إنك مدين لي بمارك وخمس وثلاثين بفنغاً. متى سأحصل عليها؟

ـ ستحصل عليها بالتأكيد يا كرومر. المسألة هي أنني لاأعرف الآن متى سيكون ذلك. ربما حصلت على المزيد غداً أو بعد غد. أنت تفهمني. أليس كذلك؟ إنني لاأستطيع أن أنبس بكلمة عن الموضوع مع والدي.

ـ هذا لايعنيني. أنا لاأريد إيذاءك. إنني أستطيع الحصول على نقودي قبل الغداء كما تعرف. لو أردت. وأنت تعرف أنني فقير. إنك ترتدي ملابس غالية الثمن وتتغذى بطعام أفضل من طعامي. ولكنني لن أقول شيئاً. أستطيع الانتظار قليلاً. بعد غد سأصفر لك. أنت تعرف صفرتي. أليس كذلك؟

وأسمعني إياها. وكنت قد سمعتها من قبل.

ـ نعم. أعرفها.

وتركني وكأنه لم يسبق له أن رآني من قبل. كان ما جرى بيننا صفقة من نوع ما ولا شيء أكثر.

أعتقد أن صفرة كرومر ستخيفني حتى لو سمعتها الآن بشكل مفاجئ. منذ ذلك الحين صار علي أن أسمعها تتردد أكثر من مرة. وقد بدا لي أنني أسمعها دائماً. لم يكن هناك مكان واحد، أو لعبة واحدة، أو أي نشاط أقوم به أو فكرة تخطر لي إلا وصفير كرومر يخترقه، أو يخترقها، ذلك الصفير الذي جعلني عبداً له؛ والذي صار قدري، وكثيراً ما كنت أدخل إلى حديقتنا التي كنت مغرماً بها في تلك الأيام الخريفية اللطيفة، ورغبة مبهمة تحثني على أن ألعب لعبة أصغر مني لكنها لعبة من لايزال طيباً وحراً، بريئاً وآمناً. ولكن حتى في وسط هذا الملاذ ـ وبشكل متوقع لكنه مفاجئ في كل مرة بشكل مرعب ـ ينطلق صفير كرومر ليقوض اللعبة ويسحق أوهامي. ويكون عليّ، عندها، أن أغادر الحديقة لكي أتبع معذبي إلى أماكن قبيحة وشريرة حيث يكون عليّ أن أقدم له كشفاً بوضعي المالي البائس ثم أسمح بالضغط عليّ لكي أدفع. لقد استمر الأمر كله عدة أسابيع على ما أظن، لكن ذلك كان يعادل

بالنسبة لي سنوات، أو دهراً. ونادراً ما كنت أحصل على أية نقود، خمسة بفنغات أو عشرة، أسرقها عن طاولة المطبخ حيث تكون لينا قد تركت سلة التسوق. وكان كرومر يوبخني في كل مرة ويزداد احتقاراً لي؛ فأنا أغشه وأخدعه وأحرمه مما كان حقاً له، إنني أسرقه وأجعله بائساً! لم أكن في حياتي محبطاً كما كنت في تلك الفترة ولم أشعر أبداً بمثل هذا اليأس وهذا الاسترقاق.

ملأت الحصالة بنقود مزيفة (من نقود اللعب) وأعدتها إلى درج والدتي. لم يسأل أحد عنها. ولكن احتمال أن يسألوا لم يبرح ذهني. وما كان يخيفني أكثر من صفير كرومر الوحشي هو أن تأتي إليّ أمي ـ أليست قادمة لتسألني عن الحصالة؟

ولأنني قد التقيت بمعذبي عدة مرات وأنا خاوي الوفاض بدأ يبتكر أساليب جديدة لتعذيبي واستغلالي. كان عليّ أن أشتغل عنه. فهو يؤدي عدة مهام لوالده. وصار علي أن أقوم بها أنا، أو أنه كان يطلب مني القيام بعمل صعب كأن أحجل عشر دقائق على ساق واحدة أو أعلق ورقة على معطف شخص عابر. وفي ليال عديدة كنت أؤدي هذه الأعمال المعذبة حتى أغرق في عرق الكابوس.

ولفترة مرضت مرضاً فعلياً. كنت أتقيأ كثيراً وتصيبني الرعشة لكن في الليل ترتفع حرارتي وأتعرق. وأحست أمي أن هناك أمراً غير طبيعي فصارت تراعيني كثيراً. لكن هذا زاد في تعذيبي إذ لم أكن قادراً على مقابلة هذه المراعاة بإفشاء سري لها.

وذات ليلة، بعد أن أويت إلى فراشي، جلبت لي قطعة شوكولا، وذكرني هذا بأعوامي السابقة، عندما كنت أتلقى مكافآت كهذه قبل النوم إذا كان سلوكي لطيفاً. وهاهي الآن تقف أمامي وتعطيني قطعة الشوكولا. كان المنظر مؤلماً فلم أستطع أن أفعل شيئاً أكثر من أن أهز رأسي. سألتني عما حدث لي وهي تربت على شعري. ولم أستطع أن أجيبها إلا بقولي: «لا. لا. لاأريد شيئاً». وضعت قطعة الشكولا على الطاولة المجاورة للسرير وغادرت الغرفة. وفي صباح اليوم التالي حين أرادت أن تسألني عن تصرفي في الليلة السابقة تظاهرت أنني

نسيت الحادث كلياً. وذات مرة جلبت لي الطبيب ففحصني ووصف لي حماماً بارداً في الصباح.

كانت حالتي في ذلك الحين نوعاً من الجنون. فوسط الهدوء المنظم لبيتنا كنت أعيش خجلاً ومعذباً مثل شبح. لم أكن أمارس أي دور في حياة الآخرين. ونادراً ما كنت أنسى نفسي ولو لساعة بين حين وآخر. ومع والدي، الذي كان يثور كثيراً ويسألني عما يجري، كنت بارداً تماماً.

2

قابيل

جاءني الخلاص من مصدر غير متوقع على الإطلاق، وهو، أيضاً، ما أدخل عنصراً جديداً في حياتي مازال يؤثر فيّ حتى الآن.

دخل مدرستنا ولد جديد. كان ابن أرملة ثرية جاءت تعيش في بلدتنا. وكان يلف على كمه عصابة حداد. وبما أنه أكبر مني بعدة سنوات فقد وُضع في صف أعلى. لكنني لم أستطع تجنب مراقبته ومتابعته. وكذلك كان الجميع. كان هذا التلميذ المتميز يبدو أكبر من مظهره. والحقيقة أنه لم يكن يوحي لأحد بأنه ولد. فعلى العكس منا جميعاً كان يبدو غريباً وناضجاً مثل رجل أو ربما مثل جنتلمان. لم يكن محباً للاختلاط ولم يكن يشاركنا ألعابنا وخاصة ألعابنا الفظة. وصوته القوي الواثق، وحده، مع المعلمين جعله يكسب إعجاب التلاميذ. وكان اسمه ماكس دميان.

ذات يوم ـ وكما يحدث بين حين وآخر ـ أضيف إلى قاعتنا الواسعة صف آخر لسبب ما. وكان هذا صف دميان. وكنا، نحن الأصغر، نأخذ درساً من الكتاب المقدس. وكان على الصف الآخر، الأعلى، أن يكتب مقالة. وفيما كانت قصة قابيل وهابيل تلقى على مسامعنا، كنت أتطلع نحو دميان الذي كان لوجهه بالنسبة لي سحر خاص. ورحت أراقب ذلك الوجه الذكي المضيء والمليء بالتصميم على شكل غير مألوف وهو مكب باستغراب على عمله. لم يكن يبدو عليه،

أبداً، أنه تلميذ يكتب وظيفة، بل كان أشبه بعالم يتقصى مشكلة تعنيه. ولم أستطع الجزم بأنه قد ترك عندي انطباعاً ودوداً؛ بل على العكس من ذلك كان في نفسي شيء ما ضده، فقد كان يبدو متفوقاً جداً ومنعزلاً جداً، وفي سلوكه ثقة مغيظة، كما كانت عيناه تعطيانه تعبير البالغين ـ الذي لايحبه الأطفال ـ بمسحة من الحزن مشوبة بالسخرية. لكنني لم أستطع منع نفسي من النظر إليه، دون اعتبار لكوني أحبه أو أمقته. ولكن إن صادف وحول عينيه باتجاهي فقد كنت أهرب بنظري خائفاً. وحين أستعيد ذلك في هذه الأيام، وأستعيد كيف كان يبدو كتلميذ في ذلك الحين، لاأستطيع أن أقول إلا أنه كان مختلفاً عن الآخرين في كل شيء، لقد كان منسجماً تماماً مع نفسه، وله شخصيته الخاصة به والتي كانت تجعله مرموقاً على الرغم من أنه كان يبذل جهده لكي لايكون محط الأنظار، كان له سلوك الأمير وطباعه؛ الأمير المتخفي بين أولاد المزرعة وهو يبذل جهداً كبيراً لكي يبدو واحداً منهم.

كان يسير خلفي في طريق العودة إلى البيت من المدرسة، وبعد أن انفصل الآخرون عني وصل إليّ وقال: مرحباً. حتى طريقته في التحية، وعلى الرغم من أنه كان يحاول تقليد أسلوب التلاميذ، كانت متميزة في نضجها وأدبها.

سألني: هل نمشي معاً؟ فشعرت بشيء من الزهو وهززت رأسي موافقاً. ثم أخبرته أين أعيش.

ـ ها.. هناك؟ قال وابتسم. ثم أضاف: أعرف البيت، هناك شيء غريب فوق المدخل. لقد أثار اهتمامي فوراً.

لم أعرف مسبقاً ما كان يقصده واستغربت أن يعرف بيتنا أكثر مما أعرفه. الحجر الموجود وسط القنطرة، فوق الباب، كان عليه نوع من شعار النّبالة لكنه مطموس بفعل الزمن وقد غطي بالدهان أكثر من مرة. وعلى قدر ما أعرف لاعلاقة لهذا الشعار بنا أو بعائلتنا.

قلت بخجل: لاأعرف عنه شيئاً. إنه طائر أو شيء من هذا القبيل. ولابد أنه قديم جداً. في مرحلة من المراحل كان المنزل جزءاً من الدير.

هز رأسه: ممكن. تطلع إلي بمتعن. أشياء كهذه يمكن أن تكون هامة. أظن أنه باشق.

تابعنا سيرنا. شعرت أنني خجل. وبغتة ضحك دميان وكأن شيئاً مضحكاً خطر له. وصاح: صحيح. حين كنا في الصف سوية. قصة قابيل الذي له علامة على جبهته. هل أحببتها؟

لا. لم تعجبني، كان من النادر بالنسبة لي أن أحب أي شيء مما علينا أن نتعلمه. لكنني لم أجرؤ على الاعتراف بالأمر؛ فقد شعرت أن شخصاً كبيراً يكلمني. قلت إنني لم أهتم كثيراً بالقصة.

وضربني دميان ضربة خفيفة على ظهري: «لست مضطراً للتمثيل أمامي. ولكن في الحقيقة إن القصة مثيرة أكثر من أية قصة أخرى يعلموننا إياها في المدرسة. أستاذكم لم يستطرد فيها. لم يذكر إلا الأشياء العادية عن الله والخطيئة وما شابه ذلك. لكنني أعتقد» وقاطع نفسه ليسألني باسماً: «هل يثيرك أي شيء في هذا؟». ثم تابع: «أظن أن الإنسان يستطيع أن يعطي لهذه القصة عن قابيل تفسيراً مختلفاً. معظم الأشياء التي نتعلمها صحيحة وحقيقية. أنا واثق من ذلك. لكن الإنسان يستطيع أن ينظر إليها من زاوية مختلفة تماماً عن الزاوية التي ينظر منها معلمونا ـ وفي معظم الحالات يصبح لها معنى أفضل. فمثلاً ليس من الممكن أن يقتنع الإنسان بقصة قابيل هذه والعلامة التي على جبهته وبالطريقة التي شرحت لنا بها. ألا توافق؟ من الممكن تماماً لشخص ما أن يقتل أخاه بحجر ثم أن يتألم ويندم. أما أن يكافأ على جبنه بوسام خاص، بعلامة تحميه بينما يحل الخوف من الله في قلوب الآخرين؛ فهذا هراء. أليس كذلك؟».

ـ طبعاً. قلت باهتمام وقد بدأت الفكرة تستهويني. ولكن أية طريقة أخرى هناك لتفسير القصة؟

وضربني ضربة خفيفة على كتفي.

ـ الأمر بسيط جداً. العنصر الأول في القصة، بدايتها الفعلية، هو العلامة. يوجد شخص على جبينه شيء ما يخيف الآخرين. لم يكونوا يجرؤون على مد أيديهم عليه، كان يؤثر عليهم، هو وأولاده. نستطيع

أن نخمن ـ لا بل نستطيع أن نكون واثقين ـ إنها لم تكن علامة على الجبين مثل ختم البريد ـ ليست الحياة أبداً بهذا الوضوح وهذه المباشرة. بل إنه من المحتمل أن الآخرين كانوا يرونه شريراً، وربما أكثر ذكاء بقليل وأكثر جرأة في مظهره مما تعودوا عليه. كان هذا الرجل قوياً. ولاتستطيع الاقتراب منه إلا وأنت خائف. إن فيه«علامة». وتستطيع أن تفسر هذا الأمر بأية طريقة تشاء. والناس يريدون دائماً ما هو مقبول لديهم وما يجعلهم على صواب. كانوا يخافون من أولاد قابيل: إنهم يحملون «علامة». ولذا لم يفسروا العلامة كما هي عليه ـ كعلامة تمييز ـ بل بعكسها. قالوا: «هؤلاء الناس ذوو العلامة؛ إنهم قوم غرباء» وهذا صحيح. والناس الذين يتحلون بالشجاعة وقوة الشخصية يبدون دائماً أشراراً للآخرين. وكان من المخزي وجود سلالة من البشر الأشرار الذين لايخافون وهم يتصرفون على هواهم، ولذا فإن الناس ابتكروا اسماً وأسطورة لهؤلاء لكي يتمكنوا من التعامل معهم ولتبرير المرات التي أحسوا فيها بالخوف منهم ـ هل أنت معي؟

ـ نعم ـ أقصد ـ في هذه الحالة لايعتبر قابيل شريراً أبداً؟ والقصة المذكورة في التوراة، كلها، ليست موثوقة تماماً.

ـ نعم ولا. قصص مغرقة في قدمها كهذه هي دائماً قصص صحيحة، ولكن ربما لم تكن تسجل دائماً بشكل صحيح ولم تكن تعطى التفسيرات الصحيحة. ما أعنيه، باختصار، هو أن قابيل كان شخصاً ظريفاً وأن هذه القصة قد ارتبطت به لمجرد أن الناس كانوا يخافونه. القصة، ببساطة، عبارة عن شائعة، شيء مما يثرثر الناس به، وهي صحيحة في ما يتعلق بوجود علامة لدى قابيل وأبنائه، وباختلافهم عن معظم الناس.

صعقت.

وسألته مندهشاً: وهل تعتقد أن مسألة قتله لأخيه هي أيضاً غير صحيحة؟

ـ هذه صحيحة طبعاً. القوي قتل الضعيف. ولكن من المشكوك فيه أن يكون أخاه. غير أن هذا غير هام. بالمعنى المطلق الناس كلهم

أخوة. وهكذا: قام شخص قوي بقتل شخص ضعيف؛ ربما كان العمل في حقيقته بطولياً وربما كان غير ذلك. وفي أية حال صار الضعفاء كلهم يخافون منه منذ ذلك العمل. وكانوا يتشكّون بمرارة. ولو أنك سألتهم: لم لاترتدون عليه وتقتلونه أيضاً؟ فإنهم لايجيبون: «لأننا جبناء» بل يقولون: «ليس هذا ممكناً. إنه يحمل علامة. الله قد علّمه وميزه». ولابد أن الخداع قد بدأ بشكل ما على هذا النحو ـ آه. عفواً. أرى أنني قد أخّرتك. وداعاً.

انعطف إلى ألتغاس وتركني واقفاً أكثر حيرة مما سبق أن كنت في حياتي كلها. ولكن فور ذهابه بدا لي كل ما قاله غير معقول. قابيل إنسان نبيل! هابيل جبان! علامة قابيل علامة تميز. هذا غير منطقي، بل هو تفكير كافر وشرير. كيف يُبرَّر الله إذن؟ ألم يتقبل قربان هابيل؟ ألم يكن يحب هابيل؟ لا. ما قاله دميان هو الجنون بعينه. ورحت أشك في أنه كان يريد أن يسخر مني وأن أفقد توازني. صحيح أنه بارع ويعرف كيف يتحدث لكنه لايستطيع أن يمرر أمراً كهذا... ليس عليّ على الأقل!

لم يسبق لي أن فكرت في قصة توراتية أو أية قصة أخرى بهذا المقدار. وكان قد مر وقت طويل لم أستطع فيه نسيان فرانز كرومر نسياناً تاماً، ولو لساعات أو طوال ليلة كاملة. في البيت أعدت قراءة القصة كما هي مكتوبة في التوراة. كانت مختصرة وغامضة. وكان من الجنون البحث عن معنى خاص مخبأ؟. إن كان الأمر كذلك فإن أي قاتل يستطيع أن يعلن أنه حبيب الله. لا، ما قاله دميان سخف وهراء. لكن ما سرني هو ذلك اليسر والبهاء اللذان بهما كان قادراً على قول أشياء كهذه؛ وكأن كل شيء في غاية الوضوح. وأخيراً تلك النظرة في عينيه! ولكن، لقد حدث لي شيء هام: تشوشت حياتي تماماً. كنت أعيش في عالم نظيف وصحي. كنت، أنا، نوعاً من هابيل. وهاأنذا الآن ألقى في أعماق «العالم الآخر». لقد سقطت فيه ورحت أغرق ـ ولكن الأمر لم يكن، كله، خطئي! كيف سأدرك ذلك؟ وسطعت في أعماقي ذكرى جعلتني أحبس أنفاسي لوهلة. في ذلك المساء المصيري، عندما بدأ شقائي، حدث ذلك الأمر مع والدي. ويومها، لوهلة، استطعت التغلغل فيه وفي

عالمه المشكَّل من النور والحكمة ولم أحس بالرهبة بل بالاحتقار. نعم في تلك اللحظة، أنا، الذي كنت قابيل والذي يحمل العلامة، خطر لي أن هذه العلامة ليست علامة خزي وأنه بسبب شروري وسوء طالعي قد صرت متفوقاً على أبي وعلى الأتقياء والأخيار.

لم تمر بي اللحظة على هذا النحو، من خلال أفكار واضحة، ولكن هذا كله كان موجوداً فيها؛ إنه جيشان انفعالات ودوافع غريبة آلمتني إلا أنها، في الوقت ذاته، ملأتني زهواً.

وحين تأملت في الغرابة التي تحدث بها دميان عن الجَسور والجبناء وفي المعنى الغريب وغير العادي الذي أعطاه للعلامة التي يحملها قابيل على جبينه، وكيف التمعت عيناه المتميزتان الناضجتان؛ التمع في ذهني السؤال حول ما إذا لم يكن دميان، نفسه، نمطاً من أنماط قابيل. لم يدافع عن قابيل إن لم يكن يحس بتشبه به؟ ولِمَ له هذه التحديقة القوية؟ ولِمَ يتحدث بهذا الاحتقار عن «الآخرين»، الجبناء الذين هم ورعون. وهم المختارون من قبل الله؟

لم أستطيع الوصول بهذه الأفكار إلى أية نتيجة، لقد ألقي حجر في البئر، والبئر هي روحي الفتية. ولفترة طويلة شكلت مسألة قابيل والعلامة نقطة الافتراق لمحاولاتي في الإدراك والشك والنقد.

لاحظت أن لدميان تأثيراً ساحراً مشابهاً على الآخرين. لم أخبر أحداً بطريقته في طرح قصة قابيل، لكن الآخرين بدوا مهتمين به أيضاً. وقد انتشرت شائعات كثيرة حول «الولد الجديد». ولو استطعت تذكرها كلها الآن لأضافت كل واحدة منها ضوءاً جديداً عليه ولأمكن تفسيرها. أتذكر أولاً ما قيل من أن أمه ثرية وأنها لم يسبق لها، أو لابنها، أن ذهبا إلى الكنيسة. وقالت إحدى الحكايات إنهما يهوديان لكن من الممكن أيضاً أن يكونا، في السر، مسلمين. ثم القوة الجسدية الأسطورية لماكس دميان. لكن هذه المسألة يمكن إثباتها: وذلك عندما استفزه أقوى ولد في صفه وسخر منه. ورفض دميان أن يرد بالقتال فنعته الآخر بالجبن. وعندها أذله دميان. قال الذين كانوا حاضرين إن دميان أمسك الولد الآخر بقوة من عنقه، وبيد واحدة، وظل يشدّ قبضته حتى شحب وجه الولد الآخر. فيما بعد توارى الولد وظل أسبوعاً كاملاً عاجزاً عن استخدام يده. حتى إن بعض الأولاد ادعوا، ذات مساء أنه قد

مات. مرت فترة وكل شيء فيها، حتى أكثر الأشياء غرابة وشطحاً، كان قابلاً للتصديق، وبعد ذلك مرت فترة أخرى بدا فيها وكأن الجميع قد شبعوا من الحديث عن دميان. ولكن لم يمر وقت طويل حتى كان اللغط قد عاد: بعض الأولاد أفادوا أن لدميان علاقات طيبة مع الفتيات وأنه كان «يعرف كل شيء».

وفي الوقت ذاته كانت مشكلتي مع كرومر تسير في طريقها المحتوم. لم أستطع التخلص منه وذلك لأنني، حتى حين كان يتركني لعدة أيام، كنت أظل أسيره. كان يملأ عليّ أحلامي. وما لم يستطع اقترافه بحقي في الحياة الواقعية كان خيالي يتيحه له في تلك الأحلام التي كنت فيها عبداً له. لقد كنت دائماً شخصاً كثير الأحلام. وفي الأحلام أكون أكثر نشاطاً مما أنا عليه في الحياة الواقعية. وهذه الظلال كانت تستنزف صحتي وطاقتي. وكان الكابوس المتكرر أن كرومر يسيء معاملتي دائماً ويبصق عليّ ثم يركع فوقي. والأسوأ من هذا كله كان يدفعني لاقتراف أشنع الجرائم - أو في الحقيقة لم يكن يدفعني بل يضطرني من خلال القدرة الخالصة على الإقناع. وأسوأ هذه الأحلام، والذي كنت أستيقظ منه نصف مجنون، يرتبط باعتداء إجرامي على والدي. كان كرومر يشحذ السكين ويضعها في يدي؛ ونقف معاً وراء بعض الأشجار في ممر ما لنكمن بانتظار شخص ما لاأعرف من هو. وحين يقترب هذا الشخص يقرصني كرومر من ذراعي لينبهني إلى أن هذا هو الذي يجب أن أطعنه - ويكون أبي. وعندها أستيقظ.

وعلى الرغم من أنني ما أزال أربط بين هذه الأحداث وبين قصة قابيل وهابيل فإنني لم أكن أفكر كثيراً بماكس دميان. وعندما عاد إلى الاحتكاك بي، بعد ذلك، فقد كان ذلك في الحلم أيضاً. كنت ماأزال أحلم بأنني أتعرض للتعذيب، ولكن هذه المرة كان دميان هو الذي يركع فوقي. والجديد والأكثر تأثيراً عليّ كان أن كل ما كنت أقاومه وما كان مصدر عذاب لي حين كان كرومر هو المعذِّب كنت أتقبله بسرور على يد دميان، وبشعور أقرب إلى النشوة منه إلى الخوف. لقد تكرر الحلم مرتين. ثم عاد كرومر ليحتل مكانه.

مرت سنوات وأنا غير قادر على التمييز بين ما أتعرض له في

هذه الأحلام، وبين ما أتعرض له في الحياة الواقعية. في كل حادث كانت العلاقة السيئة مع كرومر تستمر ولم يكن هناك سبيل لإنهائها حتى بعد أن وفيت ديني من خلال عدد من السرقات الصغيرة. بل إنه الآن صار يعرف بهذه السرقات الجديدة لأنه، في كل مرة، كان يسألني من أين حصلت على النقود فأزداد خضوعاً له. حتى أنه هددني بأن يحكي كل شيء لأبي. ولكن، وحتى في هذه الحالة، كان خوفي أقل من أسفي العميق لأنني لم أقم بإبلاغ أبي بنفسي، منذ البداية. وفي الوقت ذاته، وعلى الرغم من شقائي، فإنني لم آسف لكل ما جرى، وعلى الأقل لم آسف بشكل دائم، بل إنني بين حين وآخر كنت أشعر أن ما جرى كان لابد له أن يجري وبالطريقة ذاتها. لقد كنت بين يدي القدر. وكان من العبث أن أحاول الفرار.

ولابد أن والديّ كانا تعيسين للحالة التي كنت فيها. لقد سيطرت عليّ روح غريبة فلم أعد متلائماً مع من حولي والذين كنت متآلفاً معهم. وكثيراً ما كان يتملكني توق عنيف للعودة إليهم وكأنهم فردوس مفقود. أمي، بالأخص، عاملتني كمريض أكثر مما عاملتني كوغد. ولكنني كنت قادراً على معرفة وضعي الحقيقي في العائلة من خلال موقف أخواتي. كن متساهلات معي إلى أبعد الحدود مما يوضح أنني كنت أُعتبر، بشكل ما، مجنوناً؛ شخصاً يستحق الشفقة أكثر مما يستحق اللوم، ولكنه مع ذلك تحت رحمة الشيطان. كن يصلين من أجلي بحماس غير عادي. وشعرت ببؤس لاحدود له حين عرفت أن لاجدوى من هذه الصلاة. وشعرت بحاجة ملحة للتخفيف عن نفسي، وللاعتراف المخلص، غير أنني كنت أشعر مسبقاً بأنني لن أستطيع إخبار أبي وأمي أو شرح شيء بشكل ملائم. كنت أعرف أن كل ما سأقوله سيتم تلقيه بنوع من الشفقة وأنهما، نعم، سيأسفان لحالتي، ولكنهما لن يفهما وسيتم النظر إلى الأمر كله على أنه ضلال مؤقت، بينما في الحقيقة كان هذا قدري.

وأنا أعرف أن هناك من لايصدق أن طفلاً في حدود العاشرة من عمره يمكن أن تكون لديه هذه المشاعر. ولكن قصتي ليست موجهة إليهم. إنني أحكيها إلى من لديهم معرفة أفضل بالإنسان. والإنسان

البالغ الذي تعلم كيف يحول جزءاً من مشاعره إلى أفكار سيلاحظ عدم وجود أفكار كهذه لدى طفل ولذا فهو يعتقد أن الطفل ليست لديه هذه الخبرات أيضاً. غير أنني قلما حدث لي في حياتي أن كانت لدي مشاعر ومعاناة مثلما كانت لديَ في تلك الفترة.

نزل المطر ذات يوم. وكان كرومر قد أمرني بملاقاته في برغبلاتز، فوقفت هناك أنتظره متنقلاً بين أوراق الكستناء التي كانت ماتزال تتساقط من الأشجار السوداء الرطبة. لم يكن معي نقود، لكنني استطعت الاحتفاظ بقطعتين من الكعك وجلبهما معي لكي أستطيع أن أقدم على الأقل شيئاً ما لكرومر. كنت قد ألفت الوقوف في زاوية معينة لانتظاره، ولو لوقت طويل، وتقبلت الأمر كما يتعلم المرء تحمل ما لابد منه.

وظهر كرومر أخيراً. لم يبق كثيراً. لكزني على صدري عدة مرات وضحك ثم أخذ الكعكتين. حتى أنه قدم لي لفافة مطفأة (لم أقبلها) وكان أكثر وداً مما عهدته.

- صحيح. قال بلا مبالاة قبل أن يذهب. قبل أن أنسى. تستطيع أن تجلب أختك في المرة القادمة. أختك الكبرى، ما اسمها؟

لم أفهم ما يقصده فلم أجب. ظللت أتطلع إليه مندهشاً.

- ألا تفهم؟ عليك أن تجلب أختك.

- لا يا كرومر... هذا مستحيل. لن يُسمح لي بذلك وهي لن تقبل المجيء مهما كان الأمر.

كنت مستعداً لخديعته، أو ذريعته، الجديدة تلك. كثيراً ما كان يفعل ذلك. يطلب شيئاً مستحيلاً. يخيفني ويذلني؛ ثم، تدريجياً، يساومني ويكون عليّ أن أفتدي نفسي ببعض النقود أو بهدية.

ولكن الأمر، هذه المرة، كان مختلفاً. لم يبد عليه أن رفضي قد أثار غضبه.

قال بلهجة واقعية محايدة: على أية حال، فكر في الأمر، بودي لو أقابل أختك. ولابد أن تجد طريقة لذلك ذات يوم. تستطيع ببساطة أن

تأخذها معك في نزهة ثم انضم إليكما. سأصفر لك غداً وعندها نستطيع أن نتحدث في الموضوع.

بعد أن ذهب توضح لي بشكل مفاجئ أمر ما في طبيعة طلبه. كنت ماأزال جاهلاً بهذه الأمور ولكنني كنت أعرف من الأقاويل أن الأولاد والبنات حين يكبرون يصبحون قادرين على أن يقوموا، معاً، بأشياء معينة غامضة وبغيضة وممنوعة. والآن يفترض بي أن - وبغتة لمعت في ذهني شيطانية طلبه. وعرفت، فوراً، أنني لن أفعلها. ولكن ما الذي سيحدث بناء على ذلك؟ أي انتقام سينتقمه مني كرومر؟ لم أجرؤ على التفكير في الأمر. كان هذا بداية لعذاب جديد لي.

رحت أمشي في الساحة المهجورة، وقد أغلقت الدنيا في وجهي، ويداي في جيبي. هناك عذابات أكبر وأعظم تنتظرني!

وبغتة ناداني صوت قوي مرح، أجفلت خائفاً وبدأت أركض هارباً. كان هناك شخص ما يركض ورائي وأمسكت بي يد من الخلف. كان هذا ماكس دميان.

قلت بقلق: آه. هذا أنت! لقد تسببت لي بمفاجأة مخيفة.

تطلع إليّ بازدراء، لم يسبق لنظرته أن كانت أكثر بلوغاً أو تفوقاً، إنها نظرة شخص قادر على سبر أغواري، ولم نتبادل الكلام لفترة طويلة.

ـ أنا آسف. قال بأسلوبه المؤدب الحازم. اسمع. لايجوز أن تخاف هكذا.

ـ قد لايستطيع المرء مع ذلك.

ـ يبدو ذلك، ولكن اسمع. حين تتشظى أمام شخص لم يتسبب لك بأذى فإن هذا الشخص سيبدأ بالتفكير. يدهش ويتساءل ويعتبر أنك شديد التوتر ثم يتوصل إلى نتيجة مفادها أن الناس يصبحون كلهم هكذا حين يشلهم الخوف. الجبناء يظلون خائفين. ولكنك لست جباناً. هل أنت كذلك؟ وبالتأكيد أنت أيضاً لست بطلاً. هناك أمور تخاف منها، وأناس أيضاً تخاف منهم. وهذا يجب أن لايحدث. يجب أن لاتخاف من الناس. لست خائفاً مني. أم أنك خائف؟

ـ لا. لا. أبداً.

ـ تماماً، ولكن هناك أناس تخاف منهم.

ـ لا أعرف... لم لاتتركني وشأني؟

ظل يماشيني ـ كنت قد سارعت خطاي وأنا أنوي الهرب ـ وأحسست به يتطلع إليّ من الجانب.

وابتدأ من جديد: لنفترض أنني لا أريد أن ألحق بك أي أذى. على أية حال ليست هناك حاجة لأن تخاف مني. بودي لو أجري عليك تجربة. قد تكون مسلية وقد تتعلمُ منها شيئاً. انتبه الآن، إنني، أحياناً، أمارس فناً يعرف بقراءة الأفكار. ليس فيه سحر. ولكن إن لم تعرف كيف يتم، فقد يبدو لك خارقاً. وتستطيع أيضاً أن تبهر الناس به. فلنجربه الآن. اسمع. أنا أحبك. أو إنني مهتم بك. وبودي لو أكتشف ما يدور في داخلك. ولقد حققت حتى الآن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه: فلقد أخفتك، ولذا فأنت الآن عصبي. لابد أن هناك أشياء وأناساً يخيفونك. وحين تخاف من شخص ما فالسبب الأكثر منطقية هو أن هذا الشخص يمسك شيئاً ما عليك. مثلاً، أنت ارتكبت خطأ ما والشخص الآخر يعرف بذلك، إنه يمسك بخناقك. هل فهمتها؟ إنها واضحة. أليس كذلك؟

رفعت رأسي أتطلع عاجزاً إلى وجهه الذي كان جاداً وذكياً ولطيفاً كما عهدته دائماً. لكن صرامة المحايدة كان ينقصها الحنان. كان التجرد، أو شيء يشبهه، جلياً في وجهه. ولم أدرك ما الذي كان يحدث لي: كان يقف أمامي مثل ساحر.

ـ هل فهمتها؟ سألني مجدداً.

وهززت برأسي عاجزاً عن الكلام.

ـ قلت لك إن قراءة أفكار الآخرين قد تبدو غريبة لكنها طبيعية تماماً. مثلاً قد أستطيع إخبارك، وربما بدقة، عما فكرته عني بعد أن حكيت لك قصة قابيل وهابيل. ولكن ليس هذا وقته. ولعلي أظن أنك ربما حلمت بي ذات يوم. ولكن سندع هذا كله جانباً. أنت لمّاح ومعظم الناس أغبياء. وأحب أن أتحدث مع من هو لمّاح بين حين وآخر، مع شخص أستطيع أن أثق فيه. لن تعترض. أليس كذلك؟

ـ طبعاً لا. لكنني لا أفهم...

ـ دعنا نتابع تجربتنا المسلية الآن. لقد اكتشفنا أن الولد (س) يخاف بسرعة ـ إنه يخاف من شخص ما ـ إذن فهناك سر مشترك بينهما، وهو سر يجعله يشعر بالقلق. بشكل عام هل هذا قريب من الحقيقة؟

وكما لو كنت في حلم فقد استسلمت لصوته وتأثيره. بدا كما لو أن صوته يصدر عن أعماقي. وكان يعرف كل شيء. فهل كان يعرف كل شيء بشكل أفضل وأكثر وضوحاً مما أعرف أنا؟

ضربني دميان بشدة على كتفي:

ـ هذا هو الأمر إذن. ظننت أنه قد يكون هكذا. والآن سؤال آخر فقط: هل تعرف اسم الولد الذي افترقت عنه هناك في برغبلاتز؟

ارتعبت. لقد لمس سري.

ـ أي ولد؟ لم يكن هناك أي ولد. كنت وحدي.

ـ خلصنا. وضحك. ما اسمه؟

همست: هل تعني فرانز كرومر

وهز رأسه مقتنعاً:

ـ عظيم. أنت على حق. سنصير أصدقاء. ولكن في البدء عليّ أن أقول لك شيئاً: كرومر، هذا، أو مهما كان اسمه، ينبئني وجهه بأنه سافل من الدرجة الأولى، ما رأيك؟

ـ صحيح ـ وتنهدت ـ إنه سيء جداً. ولكن يجب أن لايسمع بذلك. لخاطر الله يجب أن لايكتشف أي شيء. هل تعرفه؟ هل يعرفك؟

ـ إهدأ. لقد ذهب وهو لايعرفني ـ لم يعرفني بعد. لكنني أود لو ألتقي به. إنه يدرس في المدرسة الشعبية، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ في أي صف هو؟

ـ الخامس. ولكن أرجوك لاتخبره بشيء.

ـ لاتخف. لن يحدث لك شيء. أفهم أنك لاتريد أن تخبرني بشيء آخر عن كرومر هذا؟

ـ لاأستطيع.

صمت قليلاً: للأسف. كنا استطعنا أن ننقل التجربة إلى مرحلة أخرى. ولكنني لا أريد إزعاجك. على أية حال أنت تدرك أن خوفك منه غلط. أليس كذلك؟ خوف كهذا يمكن له أن يدمرنا تدميراً تاماً. يجب أن نتخلص منه إذا كنت ترغب في أن تصير لطيفاً ـ أنت تفهم الموضوع. أليس كذلك؟

ـ طبعاً. أنت محق تماماً... لكن الأمر معقد جداً... ليست لديك فكرة...

ـ لقد رأيت أنني أعرف قليلاً من الأمور عنك... أعني أكثر بكثيرٍ مما تخيلت ـ هل أنت مدين له بنقود؟

ـ نعم. وهذا أيضاً. لكنه ليس الموضوع الأساسي. لا أستطيع أن أخبرك. لا أستطيع وكفى.

ـ ألن يكون مفيداً لو أعطيتك المبلغ الذي أنت مدين به؟

ـ لا، ليس هذا هو الأمر. وأنت تعد بأن لاتخبر أحداً بالأمر. ولا كلمة. ألا تعد؟

ـ تستطيع أن تثق بي يا سنكلير. وتستطيع في وقت آخر أن تحكي لي سرك.

ـ أبداً. صرخت بأعلى صوتي.

ـ كما تشاء. كل ما كنت أعنيه هو أنك ربما أخبرتني بالمزيد في وقت آخر. وبرغبتك طبعاً. وأنت لايخطر لك أنني سأعاملك كما يعاملك كرومر. هل تشك بذلك؟

ـ لا، ولكن ما الذي تعرفه عن ذلك بالمناسبة؟

ـ لاشيء. مجرد أنني فكرت بالموضوع وعرفت أنني لن أعاملك مثل كرومر. تستطيع أن تثق بذلك. وإضافة إلى ذلك أنت لست مديناً لي بشيء.

مر وقت طويل دون أن نتكلم بعد ذلك، وبدأت أهدأ. لكنني وجدت معرفة دميان بالأمر محيرة.

ـ سأذهب إلى البيت الآن. قال ذلك وهو يلف معطفه حول جسمه تحت المطر. أمر واحد آخر أود أن أقوله لك طالما أننا وصلنا إلى هذا الحد. يجب أن تتخلص من هذا السافل! وإن لم تكن هناك طريقة أخرى فاقتله. سيسرني ويعجبني أن تفعلها. بل إنني سأساعدك.

وبغتة عادت إليَّ قصة قابيل فخفت من جديد. وبدأ كل شيء يصبح منذراً بالشؤم بالنسبة لي حتى رحت أنشج. إنني محاط بالكثير مما لا أعرفه.

«حسن إذن» ابتسم ماكس دميان: «عد إلى البيت. سنجد طريقة. على الرغم من أن قتله أفضلها وصديقك كرومر هذا ليس أفضل صديق تحصل عليه».

سلكت الطريق إلى بيتي ـ وبدا لي كما لو أنني قد ابتعدت عنه عاماً كاملاً. كل شيء فيه بدا مختلفاً. إن شيئاً أشبه بالمستقبل، أو الأمل، صار الآن يفصلني عن كرومر. لم أعد وحيداً. والآن فقط أدركت كم كنت وحيداً مع سري خلال عدة أسابيع، وبغتة خطرت لي فكرة كانت قد خطرت لي عدة مرات من قبل: أن اعترافاً لوالديَّ سيخفف من أعبائي لكنه لن يخلصني منها نهائياً. أما الآن فأنا أكاد أكون قد اعترفت، لآخر، لغريب والإحساس بالخلاص كان شبيهاً بالنسيم العليل.

غير أن خوفي لم يتم التغلب عليه نهائياً. وتهيأت لسلسلة طويلة من المشاحنات الضارية مع عدوي. ولهذا كان من الملحوظ أن الأمور أخذت مجرى هادئاً وحذراً.

مر يوم، ويومان، وأسبوع كامل ولم تنطلق صفرة كرومر قرب بيتنا. ولم أستطع أن أصدق فكنت أنتظر بشكل دائم اللحظة التي فيها سيعود إلى الظهور بغتة ودون توقع. بدا وكأنه قد اختفى. ولتشككي بحريتي الجديدة، رفضت أن أصدقها إلى أن التقيت بفرانز كرومر. حين رآني أجفِلَ وتقلص وجهه، ثم التفت وكأنه يريد أن يتجنب الالتقاء بي.

كانت بالنسبة لي لحظة لاسابق لها. عدوي يهرب مني، شيطاني يخاف مني. وغمرتني رعشة الدهشة المفاجئة.

والتقيت، ذات يوم، مرة أخرى بدميان. كان ينتظرني أمام المدرسة.

قلت: مرحباً.

ـ صباح الخير يا سنكلير. كنت أريد، فقط، أن أطمئن كيف تسير الأمور معك. كرومر لم يعد يزعجك. أليس كذلك؟

ـ أهي فعلتك؟ كيف تدبرتها؟ لا أفهم الأمر أبداً. لقد ابتعد عني نهائياً.

ـ ممتاز. ولكن إذا ظهر من جديد ـ ولا أظنه سيفعل، على الرغم من أنه من النوع الذي لايرحم ـ فيكفي أن تقول له أن لاينسى ماكس دميان.

ـ ولكن ما الرابط بينكما؟ هل تشاجرت معه وهزمته؟

ـ لا. ليست هذه طريقتي في معالجة الأمور. اكتفيت بمحادثته مثلما حادثتك واستطعت أن أوضح له أن من مصلحته أن يتركك وشأنك.

ـ أرجو أن لاتكون قد دفعت له نقوداً.

ـ لا. هذا أسلوبك أنت.

وزاغ عن أسئلتي كلها ثم تركني وأنا محمل بالشعور القلق تجاهه، الشعور ذاته الذي كنت أحمله له من قبل: مزيج غريب من الامتنان والرهبة، من الإعجاب والخوف، من الود والنفور الداخلي.

قررت أن أبحث عنه وأحادثه مطولاً حول هذه المسائل كلها، مثلما سأحادثه عن مسألة قابيل.

لكن الأمور لم تتم هكذا.

ليس الامتنان بالفضيلة التي أؤمن بها، وأعتقد أنه شيء من النفاق أن نتوقع ذلك من ولد. ولهذا فإن نكراني للجميل، كلياً، تجاه ماكس دميان لم يدهشني أبداً. وأنا اليوم موقن تماماً أنني كنت سأمرض وأدمر حياتي لو أنه لم يخلصني من براثن كرومر. وحتى في

ذلك الحين كنت أعي أن هذا التحرير هو أعظم تجربة في حياتي - لكنني هجرت المحرِّر نفسه حالما حقق معجزته.

وكما سبق أن قلت، إن نكران الجميل لايفاجئني. لكن ما يربكني، في استعادة الأحداث، هو قلة فضولي. كيف استطعت أن أواصل حياتي ليوم واحد دون أن أحاول الاقتراب من السر الذي كشفه لي دميان؟ كيف حدث أنني لم أرغب في سماع المزيد عن قابيل، والمزيد عن كرومر، والمزيد عن قدرة دميان على قراءة أفكار الآخرين؟

إنه لأمر لايصدق ولكنه كان يحدث. بغتة وجدت نفسي وقد تخلصت من متاهة شيطانية. ومرة أخرى عدت أرى العالم مشرقاً وسعيداً أمامي ولم يعد خاضعاً لتقلبات الخوف الخانق. لقد تحطمت التعويذة ولم أعد عرضة للَّعنة والتعذيب. عدت، مرة أخرى، تلميذاً وراح وجودي كله يحاول استعادة توازنه الهادئ بأسرع ما يمكن، باذلاً جهداً خاصاً لمقاومة الأشياء البشعة المتوعدة التي عرفتها ونسيانها. وقصة غلطي وخوفي تسربت من ذاكرتي بسرعة لاتصدق ودون أن تترك، ظاهرياً، أية ندوب أو رسوبات انفعالية.

لكنني أستطيع، اليوم، أن أفهم لماذا بذلت جهدي لكي أنسى مخلصي بهذه السرعة. لقد هربت من وادي الحزن، من ارتباطي الرهيب بكرومر، وبكل القوة التي تسيطر عليها روحي المتألمة؛ وعدت إلى حيث صرت سعيداً وراضياً، إلى الفردوس المفقود الذي كان من جديد ينفتح لي، إلى العالم الوضاء المنتظم الذي قوامه الأب والأم والأخوات ورائحة النظافة وتقوى هابيل.

وفي اليوم التالي لمحادثتي القصيرة مع دميان، وبعد أن اقتنعت تماماً بأنني قد استعدت حريتي ولم أعد خائفاً من فقدانها مرة أخرى، قمت بما كنت أود أن أقوم به دائماً وبإخلاص - قمت بالاعتراف. ذهبت إلى أمي وجعلتها ترى الحصالة المخرَّبة والتي فيها نقود اللعب وحكيت لها كم مضى عليّ وأنا أربط نفسي، من خلال خطئي، بمعذِّبي الشرير. لم تفهم الأمر كله ولكنها رأت؛ رأت تعابيري المتغيرة وسمعت التغيير في نبرة صوتي، وشعرت بأنني قد شفيت وأنها استعادتني.

والآن بدأ عيد قبولي مجدداً في القطيع، بدأت عودة الابن الضال. أخذتني أمي إلى أبي، وأعيدت الحكاية. كانت هناك استفسارات وتعابير عن الدهشة. وربت الوالدان معاً على رأسي وتنفسا الصعداء بعد فترة طويلة من الغم. كان كل شيء رائعاً. حدث كل شيء كما في القصص التي قرأتها؛ وذاب كل شيء في اتساق وتناغم مدهشين.

تراخيت على قناعة أنني قد استعدت هدوء بالي وثقة أبويّ. وصرت، في البيت، نموذج الولد المثالي، ألعب مع أخواتي أكثر مما مضى وأثناء جلسات الدعاء كنت أنشد ترنيماتي المفضلة بحميّة مَنْ تحقق خلاصه واهتدى. كانت تنبع من قلبي ولازيف أو زَيَغ فيها.

ولكن لم تترتب الأمور كلها. وهذه هي الحقيقة التي تفسر إهمالي لدميان. كان من واجبي أن أعترف له. وكان الاعتراف سيأتي أقل عاطفية وتأثيراً؛ إلا أنه كان سيصبح أكثر جدوى وفائدة. لقد عدت إلى عالمي العَدَني السابق. ولم يكن هذا عالم دميان ولم يكن من الممكن له أن يتلاءم معه. فهو أيضاً مُغْوٍ ولو بطريقة مختلفة عن كرومر. هو، أيضاً، حلقة وصل مع العالم الآخر الشرير الذي لم أعد أريد أن تكون لي أية علاقة به. لم أكن أريد أن أضحي بهابيل من أجل تمجيد قابيل، ليس الآن على الأقل بعد أن صرت مرة أخرى (هابيل).

كانت تلك هي الأسباب السطحية. أما الأسباب العميقة فهي كما يلي: لقد تحررت من ربقة كرومر والشيطان، ولكن ليس بقوتي أو بجهودي. إنني حاولت أن أعبر متاهة العالم ولكن تبين أن الطريق صعب جداً عليّ. أما وقد حررتني يدٌ صديقة فقد انسحبت دون أن ألتفت يمنة أو يسرة بل ذهبت مباشرة إلى حضن أمي وإلى أمان الطفولة البريئة المحمية. حولت نفسي إلى شخص أصغر وأكثر اتكالية وطفولة مما كنت. وصار عليّ أن أستبدل اتكالي على كرومر باتكالي على شخص آخر جديد فقد كنت عاجزاً عن السير وحيداً. وهكذا، وفي طيش الفؤاد اخترت أن أتكل على أبي وأمي، على «عالم النور» القديم المرتجى، على الرغم من أنني قد عرفت الآن أنه لم يكن العالم الوحيد. ولو أنني لم أسلك هذا السبيل لكان عليّ أن أرسو على دميان وأمنحه ثقتي. وكوني لم أفعل ذلك في حينه بدا لي نتيجة لشكي المبرر بأفكاره

الغريبة. والحقيقة أن السبب كان خوفي وحده. فدميان كان سيثبت أنه ذو مطالب أكثر بكثير من والديَّ. كان سيحاول جعلي أكثر استقلالية باستخدام الإقناع والنصح والهزء والسخرية. ولقد أدركت اليوم أنه ما من شيء في الدنيا أكثر إثارة للاشمئزاز للإنسان من اختياره الطريق الذي يوصله إلى نفسه.

لكنني بعد ستة أشهر لم يعد في وسعي مقاومة الإغواء فسألت أبي، ونحن نتمشى، عما يستنتجه المرء من حقيقة أن بعض الناس يرون قابيل أفضل من هابيل.

وأخذ أبي على حين غرة ثم شرح لي أن هذا التفسير تنقصه الأصالة، وأنه قد طُرح أيامَ العهد القديم ودعت إليه عدة مذاهب يسمى أحدها «القابيليون». لكن هذا المبدأ السخيف، بالطبع، لم يكن إلا محاولة من قبل الشيطان لإفساد إيماننا. ذلك أنه إذا آمن إنسان بأن قابيل على حق وهابيل على خطأ فسينجم عن ذلك أن الله قد أخطأ. وبمعنى آخر أن الله الذي في التوراة ليس الإله الخيّر والوحيد بل هو إله زائف. والحقيقة أن القابيليين كانوا يدعون إلى شيء من هذا القبيل. لكن هذه الهرطقة قد اختفت منذ زمن بعيد عن وجه الأرض. وأنه الآن مندهش فقط من أن أحد زملائي في المدرسة قد سمع بذلك. وحذرني بكثير من الجدية من اعتناق أفكار كهذه.

3

بين اللصوص

لو شئت لاستذكرت عدة فترات جميلة من طفولتي: الإحساس بالأمان الذي منحني إياه أبواي؛ وطبيعتي العاطفية والعيش اليسير في رضى ومرح وسط أشياء لطيفة تحيط بي. لكن اهتمامي متركز على الخطوات التي اتخذتها للوصول إلى نفسي. إنني أترك ورائي في البعيد الفاتن الساحر كافة لحظات الهدوء وجزر السلام والأمان التي أحسست بها. ولم أعد أطلب أبداً أن أضع قدمي فيها.

ولهذا ـ وبما أنني ما أزال عند طفولتي ـ سأركز على الأمور التي جاءتها من الخارج، والتي كانت جديدة والتي دفعتني إلى الأمام أو أقصتني.

وهذه الدوافع كانت تأتي دائماً من «العالم الآخر» وكانت مصحوبة بالخوف والارتباك والضمير المتعب. كانت دائماً محرضة وكانت تهدد السكينة التي كنت أتمنى بسرور أن أستمر في العيش فيها.

ثم جاءت تلك السنوات التي أُجبرت فيها على تلمس وجود دافع في داخلي كان مضطراً للتصاغر والاختفاء عن عالم النور. لقد تغلب عليّ الإحساس المتيقظ ببطء بدوافعي الجنسية، مثلما يتغلب على كل إنسان، مثل عدو وإرهابي، مثل شيء ممنوع ومُغوٍ ومغمس بالخطيئة. وما كان يبحث عنه فضولي وما ولّد فيّ من أحلام وشهوات ومخاوف ـ السر العظيم للبلوغ ـ لم يعد أبداً يتلاءم وطفولتي المحمية. كنت

أتصرف مثل غيري. وبدأت أعيش الحياة المزدوجة للطفل الذي لم يعد طفلاً. كانت نفسي الواعية تعيش داخل العالم المألوف والموافق عليه والذي ينكر العالم الجديد الذي أشرق في داخلي. وجنباً إلى جنب مع هذا العالم كنت أعيش في عالم آخر من الأحلام والنوازع والرغبات ذات الطبيعة المختلفة، والتي عبرها كانت نفسي الواعية تبذل قصارى جهودها لمد جسور هزيلة وهشة؛ ذلك أن عالم الطفولة في داخلي كان يتداعى. ومثلما هو الأمر لدى معظم الآباء فإن أبويّ لم يستطيعا أن يقدما يد العون لي وأنا أواجه مشكلات البلوغ الجديدة، التي لم تتم الإشارة إليها أبداً. كل ما فعلاه هو الوقوع في مشكلة لانهاية لها في محاولتهما لدعم محاولاتي اليائسة لإنكار الحقيقة وللاستمرار في المكوث داخل عالم الطفولة الذي بدأ، شيئاً فشيئاً، يتحول إلى عالم غير حقيقي. لم تكن لديّ فكرة عما إذا كان الأبوان قادرين على المساعدة؛ ولذا فإنني لم أعتب على والديّ. إنها مشكلتي أن أتوازن مع نفسي وأن أعثر على طريقي. ومثلي مثل معظم الأولاد حسني التربية تصرفت بشكل غير صحيح.

كل إنسان يمر في هذه الأزمة. وللشخص العادي تلك هي النقطة التي تتعارض فيها بحدة متطلبات حياته الجديدة مع بيئته، والتي فيها التقدم إلى الأمام يجب أن يتحقق بأردأ الوسائل المتوافرة لديه. كثيرون يجربون الموت والعودة إلى الحياة ـ وهذا قدرنا ـ مرة واحدة في هذه المرحلة وخلال حياتهم كلها. تصبح طفولتهم فارغة وتبدأ بالانهيار تدريجياً. كل ما يحبونه يبدأ بالابتعاد عنهم وبغتة يحسون أنهم محاطون بالوحشة والبرد الفاني في هذا الكون. وكثيرون جداً يُحْتَجزُون إلى الأبد في هذا الطريق المسدود ويظلون طوال حياتهم الباقية متعلقين بشكل مؤلم بماضيهم الراسخ، بحلمهم عن الفردوس المفقود، والذي هو أسوأ الأحلام وأكثرها قسوة.

ولكن لأعد إلى قصتي. إن الأحاسيس والأحلام المصورة التي أعلنت نهاية طفولتي أكثر من أن تُحكى بالتفصيل. الأمر الهام هو أن «العالم المعتم» أو «العالم الآخر» قد عاد إلى الظهور. وماكان عليه فرانز كرومر ذات يوم صار الآن جزءاً مني.

لقد مرت سنوات عديدة على حادثتي مع كرومر. والوقت العصيب الذي كان معبأ بالذنب قد صار ماضياً بعيداً وصار يبدو مثل كابوس قصير تلاشى بسرعة. خرج فرانز كرومر من حياتي منذ زمن بعيد، وقلما لاحظت أو انتبهت لمسألة الالتقاء به في الشارع. أما الشخص الهام الآخر في مأساتي الصغيرة، ماكس دميان، فلم يخرج من حياتي، أبداً، خروجاً كاملاً. على الرغم من أنه، ولفترة طويلة، كان يبقى في الهوامش البعيدة مرئياً ولكن خارج نطاق التأثير. وبشكل تدريجي عاد إلى الاقتراب وهو يشع، مرة أخرى، بالقوة والتأثير.

إنني أحاول أن أرى ما يمكن أن أتذكره من دميان في ذلك الحين. من المحتمل تماماً أنني لم أكلمه مرة واحدة طوال عام كامل وربما أكثر. كنت أتجنبه وهو لم يكن يفرض نفسه عليَّ بأي شكل. والمرات القليلة التي كنا نتواجه فيها كان يكتفي بأن يهز رأسه لي. حتى أنه كان يبدو أحياناً وكأن صداقته مشوبة بالهزء وبالتعامل الساخر، ولكن ربما كنت أتخيل ذلك. لقد نسي كل منا تلك التجربة التي مررنا بها معاً والتأثير الغريب الذي مارسه عليَّ في ذلك الحين.

أستطيع أن أستحضر في ذاكرتي ما كان يبدو عليه. وإذ أحاول أن أتذكر الآن أستطيع أن أرى أنه لم يعد بعيداً عني وأنني قد بدأت أنتبه إليه. أستطيع أن أراه وهو في طريقه إلى المدرسة، وحده أو مع مجموعة من التلاميذ الكبار، وأراه غريباً، وحيداً، وصامتاً وهو يتجول بينهم مثل كوكب منفصل محاط بهالة خاصة به ويشكل ناموساً بحد ذاته. لم يكن يحبه أحد، ولم يكن أحد متآلفاً معه، باستثناء أمه. وحتى هذه العلاقة لم تكن تبدو علاقة طفل بل علاقة شخص ناضج. وكلما وجد الأساتذة الأمر ممكناً تركوه لنفسه. كان تلميذاً متفوقاً إلا أنه لم يكن يبذل أي مجهود لإرضاء أحد. وبين حين وآخر كنا نسمع عن كلمة قالها، أو عن تعليق ساخر أطلقه أو عن رد أشيع أنه رد به على أستاذ وكلها ـ كنماذج من الإثارة والسخرية الجارحة ـ لم تكن تترك لديه ما يُرغب به.

وفيما أنا أغلق عينيَّ لأتذكر أستطيع أن أرى صورته تبرز: أين كان ذلك؟ نعم. تذكرت. في الزقاق المجاور لبيتنا. رأيته ذات يوم واقفاً

هناك وبيده دفتر وهو يرسم تخطيطات سريعة. كان يرسم الشعار الصغير ذا الطائر الموجود فوق مدخل بيتنا. وفيما كنت أقف بالنافذة وراء الستارة وأراقبه، دهشت من وجهه البارد وبشرته الرقيقة وهو يدير وجهه نحو الشعار. كان وجه رجل، وجه عالِم أو فنان، وجهاً سامياً فيه عزيمة، مشرقاً وهادئاً بشكل غريب وبعينين ذكيتين.

وأستطيع أن أراه في مناسبة أخرى. كان ذلك بعد عدة أسابيع، وفي الشارع أيضاً. كان كل منا متجهاً إلى بيته وعائداً من المدرسة وكنا قد اجتمعنا لنتفرج على حصان سقط على الأرض. كان واقعاً أمام عربة مزارع ومازال عنانه مربوطاً بعريش العربة، وهو ينخر متألماً من منخريه المتوسعين وينزف من جرح غير مرئي نزيفاً لوث التراب الأبيض على جانب الطريق. وعندما حولت وجهي بقرف رأيت وجه دميان. لم يكن قد دفع نفسه إلى الأمام كثيراً بل كان يقف وراء الجميع باسترخاء وبأناقته المعهودة. بدت عيناه متركزتين على رأس الحصان؛ ومرة أخرى بدا فيهما ذلك الاستغراق العميق الهادئ المهتم دون عاطفة. لم أستطع منع نفسي من النظر إليه لفترة، وعندها شعرت بإحساس صغير وغريب. رأيت وجه دميان ولم ألاحظ، فقط، أنه لم يكن وجه ولد بل وجه رجل، بل إنني شعرت، ورأيت، أنه ليس، أيضاً، وجه رجل. إن فيه شيئاً ما أنثوياً. لكن الوجه صدمني في تلك اللحظة من حيث أنه ليس وجه ذكر أو طفل، ليس وجه عجوز أو شاب، بل هو وجه يبلغ عمره ألف عام، وجه لا زمنيّ يحمل ندوب تاريخ مختلف تماماً عما نعرف. الحيوانات يمكن أن تبدو هكذا أو الأشجار أو الكواكب، وأنا لاأعرف أياً من هذه الأشياء بشكل واعٍ ولذا فأنا لاأحس بدقة بما أقوله عنه، الآن وقد كبرت، بل هو شيء من هذا القبيل. ربما كان وسيماً، وربما كنت قد أحببته، وربما كان مقرفاً. ليس في وسعي التأكد من هذا أيضاً. كل ما رأيته هو أنه كان مختلفاً عنا. كان أشبه بالحيوان أو بالروح أو بالصورة. كان مختلفاً، مختلفاً عنا بشكل لايمكن تصوره.

إن ذاكرتي تخونني ولا أستطيع الجزم في ما إذا كان ما وصفته لم يأت إلى حد ما من انطباعات جاءت فيما بعد.

مرت عدة سنوات حتى التقيت به لقاء آخر عن قرب. لم يكن دميان قد حظي بالتثبيت الديني في الكنيسة مع الجماعة التي في عمره، كما جرت العادة، وهذا أيضاً، جعله هدفاً لإشاعات مغرضة. كان الأولاد في المدرسة يكررون القصة القديمة عن كونه يهودياً أو ربما وثنياً؛ بينما كان آخرون واثقين أنه، وأمه، كانا ملحدين أو أنهما منتميان إلى مذهب خرافي سيء السمعة. وإضافة إلى ذلك أتذكر، أيضاً، أنني سمعت عن الشك في كونه عشيقاً لأمه. ومن المحتمل جداً أن يكون قد تربى دون أية تعاليم دينية ولكن هذا أصبح الآن مصدر شؤم على مستقبله. وقررت أمه أن تدفع به لأخذ دروس التثبيت الديني على الرغم من تأخره سنتين عمن هم في عمره. وهكذا حدث أنه جاء إلى الصف الديني ذاته الذي كنت فيه.

مرت فترة وأنا أتجنبه تجنباً تاماً. لم أكن أحب أن أشاركه في شيء. لقد كان محاطاً بخرافات وأسرار كثيرة، لكن ما أربكني أكثر من غيره شعوري بأنني مدين له، ذلك الشعور الذي لم يفارقني منذ حكاية كرومر. إن لدي، الآن، ما يكفيني من المشكلات مع أسراري؛ ذلك أن الدروس الدينية تواقتت مع تنوري الحاسم حول مسألة الجنس. وعلى الرغم من نواياي الطيبة كلها فإن اهتمامي بالشؤون الدينية قد تقلص إلى حد كبير. وما كان يناقشه أمامنا القس كان من عالم بعيد وتقي خاص به، ولاشك أن هذه الأمور كانت جميلة وقيمة لكنها لايمكن أن تكون بنت وقتها وذات إثارة لتلك الأمور التي كنت أفكر فيها.

وبقدر ما جعلتني هذه الحالة لامبالياً بدروس الدين، فإنها جعلتني أعود إلى الانشغال بماكس دميان. بدا كأن هناك رابطة بيننا، رابطة علي أن أتقصاها قدر الإمكان. وبمقدار ما أستطيع أن أتذكر فإن الرابطة قد بدأت صباح أحد الأيام وكان الوقت مبكراً مما يستدعي إشعال النور في غرفة الصف. كان أستاذ الإنجيل قد وصل إلى قصة قابيل وهابيل. كنت نعساناً أستمع بنصف أذن. وحين بدأ القس يشرح بصوت مرتفع وملح عن علامة قابيل أحسست، بما يشبه اللمسة، بنوع من الانذار؛ وحين التفت رأيت وجه دميان وقد التفتَ إليّ نصف التفاتة من أحد المقاعد الأمامية بعينين لامعتين تعبران عن الاحتقار بمقدار

ما تعبران عن التفكير العميق مما لايمكن الجزم به. تطلع إليّ لوهلة وسرعان ما صرت أصغي باهتمام لكلمات القس فسمعته يتحدث عن قابيل وعلامته؛ وفي أعماقي شعرت بالمعرفة التي كانت مختلفة عما يعلمنا إياه، وبأن الإنسان يستطيع أن ينظر إلى الموضوع نظرة مختلفة، وأن رأيه ليس فوق النقد.

هذه اللحظة، بالذات، أعادت تأسيس الرابطة بيني وبين دميان، وكم كان الأمر غريباً ـ لم أكد أنتبه إلى التقارب الروحي الخاص حتى رأيته مترجماً إلى اقتراب مادي. ولم تكن لديّ فكرة عما إذا كان قادراً على ترتيب الأمر بهذه الطريقة أم أنه حدث بمحض الصدفة ـ كنت ما أزال في ذلك الحين أؤمن بالصدفة والحظ ـ ولكن بعد أيام قليلة بدل دميان المقاعد في درس الدين وجاء ليجلس أمامي. (ما أزال أذكر بدقة: في جو الملجأ الرديء للصف المزدحم كنت أحب رائحة الصابون الطازج التي تنبعث من قذاله) وبعد عدة أيام بدل المقاعد مرة أخرى وجلس هذه المرة إلى جانبي. وظل في هذا المكان طوال الشتاء والربيع.

تغيرت ساعات الصباح تغيراً كاملاً. لم تعد تنعسني أو تثير مللي. بل إنني صرت أنتظرها. أحياناً كنت، وإياه، نصغي للقس بتركيز شديد، ونظرة من جاري كانت كافية للفت انتباهي إلى قصة متميزة، أو إلى قول غير عادي. ونظرة أخرى منه، نظرة خاصة، تجعلني انتقادياً ومتشككاً.

لكننا، في أغلب الأحيان، لم نكن ننتبه. لم يكن دميان سيء السلوك تجاه المعلم أو زملائه. ولم أره مرة واحدة ينخرط في المزاح المألوف ولم أسمعه مرة يقهقه أو يثرثر أثناء سير الدرس. ولم يتعرض أبداً لتأنيب معلم. بهدوء شديد وبالإشارات والتلميحات بديلاً عن الهمس سعى لأن يشركني في نشاطاته، وكانت غريبة.

مثلاً: كان يخبرني عن أي التلاميذ يثير اهتمامه وكيف يدرسهم. بعضهم كانت لديه معرفة دقيقة عنه. كان يقول لي قبل بدء الدرس: «حين أشير بإبهامي سيلتفت فلان ويتطلع إلينا أو سيحك نقرته». وخلال هذه الفترة وبعد أن أكون قد نسيت الموضوع تماماً كان

ماكس، بغتة، يشير بإبهامه إشارة مميزة. أتطلع بسرعة إلى التلميذ المعني وفي كل مرة كنت أراه يفعل الحركة المرغوبة وكأنه دمية مربوطة بخيط. وكنت أرجو ماكس أن يجرب ذلك على المعلم لكنه كان يرفض. مرة واحدة فقط جئت فيها إلى الصف ولم أكن قد درست جيداً؛ قلت له إنني أرجو أن لايستدعيني القس هذا اليوم. وساعدني. بحث القس عن تلميذ يستظهر المقطع المخصص للحفظ الشفهي ودارت عيناه في القاعة ثم استقرتا على وجهي المذنب. واقترب مني ببطء وإصبعه موجهة إليّ وبدأ اسمي يتشكل على شفتيه ـ وبغتة شرد وبدا عليه القلق وشد قبة قميصه وتوجه إلى دميان الذي كان يتطلع، مباشرة إلى عينيه وبدا عليه وكأنه سيسأله عن شيء ما. لكنه ابتعد مجدداً وتنحنح عدة مرات ثم استدعى واحداً آخر.

وعلى الرغم من أن تلك الألاعيب كانت تسليني إلا أنني بدأت ألاحظ، بالتدريج، أن صديقي كثيراً ما كان يلعب اللعبة ذاتها معي. فيحدث أنني في طريقي إلى المدرسة أحس بغتة أن دميان يسير خلفي وعلى مقربة وحين ألتفت أراه فعلاً.

وسألته ذات مرة: هل تستطيع فعلياً أن تجعل شخصاً ما يفكر فيما تريده أن يفكر فيه.

أجاب فوراً بأسلوبه الهادئ الواثق الناضج: لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنت تعرف أننا لانمتلك الإرادة الحرة حتى والقس يدفعنا للإيمان بذلك. الإنسان لايستطيع أن يفكر فيما يريد وأنا لا أستطيع أن أجعله يفكر فيما أريد. لكن في وسع المرء أن يدرس إنساناً آخر بدقة وعندها يستطيع، غالباً، أن يعرف، بشكل دقيق تقريباً، ما يفكر فيه وما يشعر به وبعدها قد يستطيع أن يعرف ما الذي سيقوم به في اللحظة التالية، والمسألة بسيطة جداً لكن الناس لايعرفونها. لاشك أنك تحتاج إلى التدريب. فمثلاً هناك نوع من الفراشات، عث الليل، تكون فيه الإناث أقل بكثير من الذكور. والعث يتوالد تماماً مثل بقية الحيوانات. الذكر يخصب الأنثى والأنثى تبيض. فإذا أخذت أنثى العث ـ كثير من علماء الطبيعة جربوا هذه التجربة ـ فإن الذكور ستأتي لزيارة هذه الأنثى ليلاً وسيأتون عن بُعد ساعات. فكر في الأمر. عن بعد عدة أميال تحس هذه

الذكور كلها بالأنثى الوحيدة في المنطقة. ويبحث المرء عن تفسير لهذه الظاهرة لكن تفسيرها ليس سهلاً. لابد أن تفترض أن لديها حاسة شم شبيهة بحاسة كلب الصيد الذي يستطيع أن يكتشف ويلاحق رائحة تبدو وكأنها عصية على أن يُحسَّ بها. أترى؟ الطبيعة ملأى بأمور لايمكن تفسيرها. ولكن رأيي هو أنه لو كانت إناث العث متوافرة وبعدد الذكور لما كان للذكور هذه الحاسة المتطورة للشم، لقد حصل الذكور عليها لأن عليهم أن يدربوا أنفسهم على الحصول عليها. ولو أن إنساناً يركز قوة إرادته كلها على غاية معينة فإنه لابد أن يحققها. هذا كل ما في الأمر. وهذا، أيضاً، يجيب على سؤالك. تفحص إنساناً عن قرب وبدقة وستعرف عنه أكثر مما يعرف عن نفسه.

كان على رأس لساني تعبير «قراءة الأفكار» وأن أذكره بحادثة كرومر التي صارت بعيدة في الماضي، لكن هذا، أيضاً، كان غريباً في علاقتنا. لا هو، ولا أنا، لمّح إلى حقيقة أنه قبل عدة سنوات تدخل بجدية صارمة في حياتي. كان الأمر يتم وكأنه لم يحدث، قط، شيء بيننا، أو كأن كلاً منا اعتبر أن الآخر قد نسي الموضوع. وفي مناسبة، أو مناسبتين، حدث أن لمحنا كرومر في أحد الشوارع، لكن أحداً منا لم ينظر إلى الآخر ولم يقل أي منا كلمة متعلقة به.

سألته: ما هذا الحديث، كله، عن الإرادة؟ فمن جهة تقول إن إرادتنا ليست حرة ثم تعود إلى القول إننا لانحتاج إلا إلى تركيز إرادتنا بقوة على هدف ما لكي نحققه. ليس بينهما ترابط. فحين لا أكون سيد إرادتي فإنني لست في الوضع الذي يمكنني من توجيهها كما أشاء.

ربت على ظهري كما كان يفعل دائماً عندما يسره شيء مني. وقال ضاحكاً: جميل أنك سألت. يجب أن تسأل دائماً وأن تكون لديك شكوك. ولكن المسألة في غاية البساطة. فمثلاً لو أنه كان على العث أن يركز إرادته على الطيران إلى أحد النجوم، أو على هدف مشابه صعب التحقق لما نجح في ذلك. فقط، هو لن يحاول مبدئياً. إن العث يحصر بحثه فيما له معنى وقيمة بالنسبة له، وفيما يحتاج إليه وفيما لاغنى له عنه في حياته. وبهذه الطريقة يحقق العث ما لايُصدَّق. إنه يطور حاسة سادسة سحرية ليست موجودة لدى أي مخلوق آخر. نحن لدينا مجال

أوسع، تنوع أكبر في الخيار، ومصالح أشمل من مصالح الحيوان. ولكن نحن، أيضاً، محدَّدون بمحيط ضيق نسبياً لانستطيع تجاوزه. فلو تصورت أنني كنت أريد، مهما كانت الظروف، أن أصل إلى القطب الشمالي، فمن أجل تحقيق ذلك يجب أن أرغب في الأمر بالقوة الكافية التي تجعل كياني كله محكوماً به. وما أن يصبح الأمر على هذا النحو، ما أن تحاول تحقيق شيء تلقيت أمراً بتحقيقه من داخلك؛ فإنك تصبح قادراً على تحقيقه؛ وعندها تستطيع أن تقيد إرادتك به مثل جواد مطيع. ولكن لو أنني قررت أن أرغب في أن يكف القس عن لبس نظارته فإن هذا بلا جدوى. هذا يعني إنني أحول الأمر إلى لعبة. ولكن في ذلك الحين عندما صممت على أن أنتقل من مقعدي في الصف الأمامي لم يكن الأمر صعباً على الإطلاق. بغتة وجد شخص يسبق اسمه اسمي في الترتيب الأبجدي، وكان، بسبب المرض، متغيباً حتى ذلك الحين وبما أنه على أحدنا أن يفسح له المجال فقد كان ذلك أنا بالطبع، لكن إرادتي كانت متهيئة لاقتناص الفرصة فوراً.

قلت: نعم. وأنا نفسي أحسست بالأفضلية في ذلك الحين. فمنذ اللحظة التي بدأ كل منا يثير اهتمام الآخر بدأت تنتقل أقرب فأقرب من مكاني. ولكن كيف حدث ذلك؟ لم تجلس قربي مباشرة. في البداية جلست لفترة في المقعد الذي هو أمامي. فكيف دبرت الانتقال الثاني؟

ـ كان الأمر على هذا النحو: لم أكن أعرف، بنفسي، أين سأجلس لكنني كنت راغباً في تغيير مقعدي في الصف الأمامي. كنت أعرف، فقط، أنني أريد أن أجلس إلى الخلف. كانت رغبتي أن آتي وأجلس إلى جانبك لكنني لم أكن قد أدركت هذه الرغبة بعد. وفي الوقت ذاته توافقت رغبتك مع رغبتي ومساعدتي. عندما وجدت نفسي جالساً أمامك أدركت أن رغبتي لم تتحقق بكاملها وأن هدفي هو أن أجلس إلى جانبك.

ـ ولكن في ذلك الحين لم يمرض أحد ولم يعد أحد من مرضه ولم يلتحق بالصف تلميذ جديد.

ـ صحيح، ولكن في ذلك الحين فعلت ببساطة ما كنت أريد وجلست إلى جانبك. والولد الذي تبادلت معه دهش إلى حد ما لكنه تركني أفعل

ما أريد. والقس، أيضاً، لاحظ حدوث تغيير ما. وحتى الآن هناك ما يزعجه في سره كلما أراد أن يتعامل معي. فهو يعرف أن اسمي دميان وأن هناك خطأ ما حين أجلس أنا، بحرف «دي»، إلى جانب حرف «إس». لكن هذا لم يخترق وعيه لأن إرادتي تعارضه ولأنني، دائماً، أضع العراقيل في طريقه. يظل يلاحظ أن هناك خطأ ما. ثم يتطلع إليّ ويحاول أن يحل اللغز. لكن لديّ حلاً بسيطاً لهذا الأمر. في كل مرة تلتقي عيناه بعينيّ أحدق فيه حتى يخفض بصره. قليلون من يستطيعون أن يصمدوا لهذه الحالة طويلاً. جميعهم يحسون بالارتباك. إن كنت تريد شيئاً من شخص ما وحدقت بعينيك إليه بثبات ولم ينزعج بسهولة فكف عن المحاولة. ليس لك نصيب فيه أبداً لكن هذا نادر جداً. عملياً أعرف شخصاً واحداً فقط لم تساعدني معه هذه الطريقة.

ـ ومن هو؟ سألته بسرعة.

تطلع إليّ بعينين ضيقتين كما يفعل عندما يغرق في التفكير. ثم حول نظره ولم يجب. وعلى الرغم من أن فضولي كان شديداً إلا أنني لم أستطع أن أكرر السؤال.

أعتقد أنه كان يقصد أمه، يقال إن علاقته بها قوية جداً. إلا أنه لم يذكر اسمها أبداً ولم يأخذني مرة واحدة معه إلى البيت. ولا أكاد أعرف شكل أمه.

كنت أحاول أحياناً أن أقلد دميان وأن أركز إرادتي بشدة على شيء ما أكون واثقاً من أنني سأحققه. كانت هناك رغبات تبدو لي ملحة. ولكن لم يحدث شيء. لم أنجح. ولم أستطع أن أحادث دميان بالأمر. إذ أنني لم أكن راغباً في الكشف عن رغباتي أمامه. وهو، بدوره، لم يكن يسألني.

وفي هذه الأثناء بدأت التشققات تظهر في إيماني الديني. لكن تفكيري، الذي كان، بالتأكيد، متأثراً جداً بدميان، كان مختلفاً اختلافاً كبيراً عن تفكير بعض زملائي التلاميذ الذين كانوا يتباهون بانعدام الإيمان الكامل. أحياناً يقولون إنه مضحك وإنه لايليق بإنسان أن يؤمن بالله، وإن قصصاً من نوع الثالوث وولادة العذراء قصص غير معقولة

ومخجلة. وإنه لمن المخزي أننا كنا مانزال، في عصرنا هذا، نتغذى على هراء من هذا النوع، ولم أكن أشاركهم هذه الآراء. وعلى الرغم من أنه كان لديّ شكوكي حول بعض الأمور. إلا أنني كنت أعرف، منذ الطفولة، حقيقة الحياة التقية، لأن والديّ كانا يعيشانها. وكنت أعرف أيضاً أن هذه الحياة ليست عديمة القيمة وليست منافقة. على العكس من ذلك كنت ما أزال في أعماق رهبة الدين. لكن دميان عودني أن أهتم بالقصص الدينية وأن أفسرها وأفسر العقائد الجامدة بحرية وبشكل فردي وحتى بشكل لاهٍ، ومع استخدام المخيلة. ودائماً كنت أستمد متعة من التفسيرات التي يطرحها. وكان بعضها ـ مثل قصة قابيل مثلاً ـ أكثر مما أتحمل بالطبع. وذات مرة، في أحد دروس الدين، فاجأني وأربكني برأي ربما كان متطرفاً في جرأته. كان المعلم يتحدث عن الجلجلة وكانت الرواية الانجيلية عن معاناة المخلص وموته قد أثرت فيّ تأثيراً عميقاً منذ الطفولة. وأحياناً، حين كنت صغيراً، في الجمعة الحزينة، مثلاً، كنت أتأثر بشدة من قراءة والديّ لآلام المسيح وكنت أود أن أعيش في هذا العالم المحزن ولكن الجميل، والشجي الشاحب ولكن الحي بقوة، في الجثمانية(*) وعلى الجلجلة. وحين سمعت «معاناة القديس ماثيو» لباخ ملأني الوهج القاتم العنيف للمعاناة في هذا العالم الغامض بإحساس راعش صوفي. وحتى اليوم أجد في هذه الموسيقى وفي «اكتوس تراجيكوس» جوهر الشعر كله.

في نهاية ذلك الدرس قال لي دميان وهو غارق في التفكير: هناك شيء لا أحبه في هذه القصة. لِمَ لاتقرأها مرة أخرى وتخضعها للتمحيص؟ فيها شيء لايبدو صحيحاً. أعني الجانب المتعلق باللصّين. الصلبان الثلاثة المتجاورة على التلة مؤثرة بالتأكيد. ثم يأتي ذلك البحث العاطفي الصغير المتعلق باللص الطيب. في البدء كان وغداً بكل معنى الكلمة، وقد ارتكب تلك الأعمال الشائنة كلها، وما يعلم الله وحده غيرها، ثم تتدفق دموعه ويقيم ذلك الحفل الباكي حول تحسين النفس والندم. ما معنى التوبة حين تكون على بعد خطوتين من القبر؟ أنا

(*) الحديقة التي اعتُقل فيها المسيح خارج القدس ـ م.

أسألك. مرة أخرى أقول ليست هذه إلا خرافة من صنع القسس، محلاّة ومزورة، ومحسَّنة بالعاطفية ومعطاة خلفية تهذيبية. ولو كان عليك أن تختار صديقاً من بين اللصين، أو أن تقرر أيهما تستطيع أن تثق به، فإنك بالتأكيد لن تختار ذلك التائب المتباكي. أبداً. تختار الآخر. رجل ذو أخلاق. إنه لن يرفع صوتاً من أجل هذه «الهداية» التي هي، بالنسبة لرجل في وضعه، ليست أكثر من كلام جميل. إنه يتبع مصيره إلى نهايته المحددة ولايجبن ويتنكر للشيطان الذي ساعده وأغراه حتى ذلك الحين. له شخصيته، والذين لهم شخصية يميلون إلى اتخاذ المواقف البغيضة في القصص التوراتية. ربما كان من أحفاد قابيل. ألا توافقني؟

ارتعبت. حتى الآن كنت أحس بألفة شديدة مع قصة الصلب. أما الآن فإنني أرى، وللمرة الأولى، بكم من انعدام الشخصية ومن ضعف المخيلة كنت أستمع إليها وأقرأها. ولكن رأي دميان الجديد بدا لي مشؤوماً وغامضاً، ويهدد بنسف معتقداتي في أولئك الذين كنت أحس أن عليّ أن أصر على وجودهم المستمر. لا. لايستطيع المرء أن يستخف بكل شيء وخاصة في الأمور المقدسة.

وكالعادة لاحظ مقاومتي حتى قبل أن أقول شيئاً.

قال بلهجة محايدة وفيها تنازل: أعرف. إنها القصة القديمة ذاتها: لاتنظر إلى هذه القصص بجدية! لكن عليّ أن أقول لك شيئاً ما. هذه إحدى النقاط التي تكشف عن فقر هذا الدين بشكل دقيق. والمسألة هي أن رب العهدين القديم والجديد لابد أن يكون شخصية متميزة واستثنائية، ولكن ليس بما يوحي أنه يمثله. الله هو كل ما هو طيب ونبيل وأبوي وجميل وسام ورقيق، صحيح! ولكن العالم يحتوي على شيء آخر إضافة إلى ذلك. كل ما تبقى يُنسب إلى الشيطان؛ هذا الجزء من الدنيا كله، هذا النصف كله يُخمد ويقمع. بالطريقة ذاتها تماماً يمتدحون الله كأب للحياة كلها. لكنهم، ببساطة، يرفضون أن يقولوا كلمة واحدة عن حياتنا الجنسية التي يقوم عليها كل شيء، ويصفونها بالخطيئة كلما أمكنهم ذلك، على أساس أنها من عمل الشيطان. ليس لدي مانع، أبداً، من عبادة هذا الرب. معاذ الله. ولكن ما أقصده هو أن

علينا أن نعتبر كل شيء مقدساً، العالم كله، وليس ذلك النصف المفصول بشكل تعسفي. ولهذا فإلى جانب صلاتنا الدينية يجب أن نقدم صلاة للشيطان. أظن أن هذا معقول. وإلا فإن عليك أن تخلق لنفسك رباً يحتوي على الشيطان أيضاً ولاتحتاج، أمامه، إلى أن تغلق عينيك عندما تحدث أكثر الأمور طبيعية في الدنيا.

لم يكن من المعهود به أن ينفعل ويحتد. لكنه سرعان ما ابتسم وتوقف عن تحريضه.

إلا أن كلماته لمست، مباشرة، السر الإجمالي لبلوغي، ذلك السر الذي كنت أحمله معي في كل ساعة من ساعات النهار والليل والذي لم أنبس بكلمة عنه لأحد. وما قاله دميان عن الله والشيطان، عن الألوهية الرسمية، والشيطان المضطهد، توافق تماماً مع أفكاري، مع أسطورتي الخاصة بي، ومفهومي الخاص عن العالم المقسم إلى نصفين ـ عالم النور، وعالم الظلام. وإدراكي لمسألة أن مشكلتي من النوع الذي يثير اهتمام الناس كلهم، مشكلة العيش والتفكير، هو ما هيمن عليّ بغتة مما جعل الخوف والاحترام يسيطران عليّ حالما رأيت وشعرت كيف أن حياتي الشخصية وآرائي كانت غارقة في التيار الأبدي للأفكار العظيمة. وعلى الرغم من أن إدراكي هذا قد منحني الثبات والرضا إلا أنه لم يكن في حقيقته مفرحاً. لقد كان صعباً ويتمتع بمذاق حاد لأنه يتضمن في طياته المسؤولية وعدم السماح لي بعد ذلك بأن أظل ولداً. كان يعني وقوفي على قدمي.

وكشفت السر العميق لأول مرة في حياتي فأخبرت صديقي عن مفهومي لـ «العالمين». ورأى فوراً أن مشاعري العميقة تتطابق مع مشاعره. لكنه لم يكن من النوع الذي يغتنم فرصة كهذه. استمع إليّ باهتمام أكبر مما سبق له أن استمع به إليّ، وحدق إلى عيني حتى اضطرني لتحويل نظري. فقد لمحت مرة أخرى، في تحديقه تلك النظرة الغريبة الشبيهة بنظرة الحيوان والمعبرة عن اللازمنية وعن العمر الذي لايمكن تصوره.

قال متمسكاً بالصبر: سنتحدث في هذا مرة أخرى. أرى أن أفكارك أعمق من أن تستطيع، أنت نفسك، أن تعبر عنها. وطالما أن

الأمر هكذا فأنت تعرف أنك لم يسبق لك أن عشت كما كنت تفكر. وهذا ليس حسناً. والأفكار التي تعيشها هي وحدها التي لها قيمة. أنت تعرف الآن أن عالمك المعترف به ليس إلا نصف العالم. وكنت تحاول أن تعبر عن النصف الثاني بالطريقة ذاتها التي يعبر بها المعلمون والقسس. ولن تنجح في ذلك. وما من أحد ينجح في ذلك طالما أنه قد بدأ يفكر.

ولمس هذا الكلام صميم قلبي. وقلت بما يشبه الصراخ: لكن هناك أشياء بشعة وممنوعة في العالم. لاتستطيع أن تنكر ذلك. إنها ممنوعة ويجب أن نهجرها. أعرف، بالطبع، أن الجرائم وكافة أنواع المعاصي موجودة في العالم. ولكن هل يجب أن أصبح مجرماً لمجرد أنها أمور موجودة؟

قال ماكس مهدئاً: لن نستطيع أن نعثر على الأجوبة كلها اليوم. بالطبع ليس مطلوباً أن تقتل شخصاً آخر أو أن تغتصب فتاة. لكنك لم تصل إلى حيث تستطيع أن تفهم المعنى الحقيقي لـ «المسموح» و«الممنوع»، لقد تحسست جزءاً من الحقيقة. وسوف تشعر بالجزء الآخر أيضاً. ثق من ذلك. فمثلاً أنت منذ عام تصارع رغبة أقوى من أية رغبة أخرى وهي تعتبر «ممنوعة»، لكن اليونانيين القدامى، وشعوباً أخرى عديدة، قد أعلوا من شأن هذه الرغبة وجعلوها مقدسة وكانوا يحتفلون بها في أعياد كبيرة. بمعنى آخر ما هو ممنوع ليس ممنوعاً أبدياً. بل هو أمر قابل للتغير. إن كل إنسان يستطيع أن ينام مع امرأة حالما يذهب معها إلى الكاهن ويتزوجها. لكن شعوباً أخرى تفعل ذلك بطرق مختلفة، وحتى في أيامنا هذه. ولهذا فإن على كل منا أن يكتشف بنفسه ما هو مسموح به وما هو ممنوع ـ ممنوع عليه. إن من الممكن لشخص ما أن لايتجاوز في حياته كلها قانوناً واحداً، ومع ذلك يظل سافلاً والعكس صحيح. عملياً هي مسألة قناعة فقط. والذين هم أكثر كسلاً واسترخاء من أن يفكروا لأنفسهم وأن يصبحوا قضاة أنفسهم هؤلاء هم الذين يطيعون القوانين. وهناك آخرون يحسون بقوانينهم الخاصة في داخلهم. وهناك أمور يعتبرونها ممنوعة على الرغم من أن أي إنسان شريف يمكن أن يقوم بها في أي يوم وفي كل وقت.

وأشياء أخرى مسموحة لهم لكنها في نظرهم محتقرة. على كل إنسان أن يقف على قدميه.

وبغتة بدا عليه الأسف لأنه تكلم كثيراً فصمت. وكنت أستطيع أن أحدس بما كان يفكر فيه في لحظات كهذه. وعلى الرغم من أنه قد طرح أفكاره بأسلوب لطيف ومحايد إلا أنه لم يعد قادراً على الحديث لمجرد الحديث كما سبق له أن قال لي ذات مرة. وفي حالتي كان يحس لدي، إضافة إلى الاهتمام الجدي، بكثير من اللعب؛ المتعة المجردة من خلال الثرثرة الذكية أو أي شيء من هذا القبيل؛ باختصار عدم الالتزام التام.

وبعد أن قرأت الكلمتين اللتين كتبتهما لتوي ـ الالتزام التام ـ قفز إلى ذهني مشهد من أكثر المشاهد إيحائية وتعبيراً مما سبق لي أن عشت مع ماكس دميان في تلك الأيام التي كنت فيها ما أزال نصف ولد.

كان اليوم الذي نأخذ فيه درس الدين يقترب. وكان موضوع دروسنا هو «العشاء الأخير». ولهذا أهمية خاصة بالنسبة للقس. وقد عانى الكثير وهو يحاول شرحه لنا. وكان في وسع المرء أن يحس بالقداسة في تلك الساعات الأخيرة من التدريس. ومن بين الأزمنة كلها فقد كان هذا هو الوقت الذي كانت فيه أفكاري أبعد ما تكون عن الدرس. كانت متركزة على صديقي. وفيما كنت أنتظر التثبيت الديني، الأمر الذي شُرح لنا كتقبل قدسي في مجتمع الكنيسة، لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن قيمة هذا الاجراء الديني، بالنسبة لي، لاتكمن في ما تعلمته بل في تقريبي من ماكس دميان وتأثيره. ولم أكن جاهزاً لأن أُقبل في الكنيسة بل في شيء مختلف عن ذلك كلياً ـ في منهج تفكير وشخصية. لابد أنه موجود في مكان ما على الأرض وقد اتخذت من ممثله أو رسوله صديقاً.

وحاولت أن أكبح هذه الفكرة، فقد كنت تواقاً للانخراط في مراسم التثبيت الديني وبوقار خاص، ولم يبد أن هذا الوقار يتلاءم مع أفكاري الجديدة. ولكن مهما كان ما كنت أفعله فقد كانت الفكرة حاضرة وصارت مرتبطة تدريجياً، وبشكل راسخ بالمراسم القادمة. وكنت

مستعداً لأن أمثل فيها بشكل مختلف عن الآخرين لأن ذلك سيمثل قبولي في عالم الفكر، كما سبق أن عرفته من دميان.

وفي يوم من تلك الأيام صادف أن كنا نتناقش قبل الدخول إلى الدرس. وكان صديقي مطبق الشفتين وقد بدا عليه أنه لايستمتع بحديثي، الذي ربما كان حديث إنسان معتد بنفسه وناضج قبل أوانه.

قال بجدية غير معهودة: إننا نتكلم كثيراً. الحديث البارع عديم القيمة تماماً. كل ما تفعله في هذا السياق هو أن تخسر نفسك. وخسارة الذات خطيئة، على المرء أن يكون قادراً على التسلل إلى داخل نفسه تماماً مثل السلحفاة.

ثم دخلنا الصف. بدأ الدرس وبذلت جهدي لكي أنتبه. ولم يشوشني دميان. بعد قليل بدأت أحس بشيء غريب من الجهة التي كان يجلس فيها، فراغ أو برودة أو شيء من هذا القبيل، وكأن المقعد المجاور لي قد أصبح خالياً بشكل مفاجئ. وحين طغى عليّ هذا الشعور التفت لأتطلع.

ورأيت صديقي جالساً بقامة منتصبة، وكتفاه مرتدتان إلى الخلف كعادته. إلا أنه ظل يبدو لي مختلفاً وظل شيء ما ينبعث منه، شيء ما يحيط به وأنا لاأعرفه. خيل لي في البدء أن عينيه مغلقتان لكنني رأيت أنهما مفتوحتان. إلا أنهما لم تكونا مركزتين على شيء محدد، كانت تطليعة لاترى شيئاً؛ بدتا محولتين وكأنهما تنظران إلى الداخل أو إلى البعيد البعيد. كان جالساً بلا حراك، ولم يكن يبدو عليه حتى أنه يتنفس؛ كما لو أن فمه منحوت من الخشب أو الحجر. كان وجهه شاحباً شحوباً متسقاً كشحوب الحجر. وشعره البني هو الجزء الوحيد فيه الذي كان يجعله قريباً من الأحياء. يداه ممدودتان أمامه على المقعد، ثابتتان وعديمتا الحياة كأنهما شيئان جامدان، كالحجارة أو الفاكهة، شاحبتان وثابتتان لكنهما ليستا من الأطراف بل كانتا جرابين قويين يخفيان حياة قوية مستترة.

ارتعشت لما رأيت. ميت. خطر لي ذلك وربما لفظت الكلمة بصوت مرتفع. كانت عيناي المأخوذتان مركزتين على وجهه، على هذا القناع

الحجري الشاحب، وشعرت في أعماقي: هذا هو دميان الحقيقي. حين كان يمشي إلى جانبي أو يتحدث إليّ ـ كان ذلك نصفه فقط، شخصاً يؤدي، بين حين وآخر، دوراً، يكيف نفسه؛ شخصاً، من قبيل الكياسة وحدها، يفعل ما يفعله الآخرون. لكن دميان الحقيقي هو هذا. بدائي، حيوان، رخام، جميل، بارد، ميت. لكنه، سراً، مليء بحياة خرافية. وحوله لاشيء إلا هذا الخواء الساكن، هذا الأثير، الفراغ الكوكبي، الموت الموحش!

وشعرت أنه قد غاص الآن بشكل نهائي داخل نفسه. وارتعشت. لم يسبق لي أن كنت وحيداً بهذا المقدار، لا دور لي فيه ولاعلاقة؛ فهو الآن عصي على المنال؛ إنه الآن أكثر بعداً عني مما لو كان على أقصى جزيرة في العالم.

لم أستطع أن أدرك أن أحداً غيري لم يلاحظ ذلك. لابد أن الجميع قد تطلعوا إليه ولابد أن الجميع قد ارتعشوا. لكن أحداً لم ينتبه إليه. كان يجلس حيث هو مثل تمثال، ومتعالياً، كما خيل لي، مثل صنم! وحامت ذبابة على جبهته ثم مرت على أنفه وفمه، ولم تتحرك فيه عضلة.

أين هو الآن؟ بم يفكر؟ بم يشعر؟ أهو في الجنة أم في الجحيم؟

لم أكن قادراً على توجيه السؤال إليه. في نهاية هذه الفترة، حين رأيته يعود إلى الحياة ويتنفس، وعندما التقت نظرته بنظرتي عاد كما كان من قبل.

من أين جاء؟ أين كان؟ بدا عليه أنه متعب. لم يعد وجهه شاحباً، وعادت يداه إلى الحركة. لكن الشعر البني كان بلا بهاء. وكأنه بلا حياة.

خلال الأيام القليلة التالية بدأت أمارس في غرفة نومي تمريناً جديداً. صرت أجلس في الكرسي بلا حراك وأثبت عيني أيضاً، وأظل ثابتاً تماماً لأرى إلى متى أستطيع البقاء على هذه الحالة وما الذي سأشعر به. لم أشعر إلا بالتعب وبأن جفني يدعوانني إلى أن أحكهما.

بعد ذلك بفترة بسيطة تم تثبيتنا دينياً. وهو حادث لايستدعي أية ذكريات هامة.

لقد تغير كل شيء الآن. كان عالم طفولتي يتكسر من حولي. وكان والداي ينظران إليّ بنوع من الاتباك. وصارت أخواتي غريبات عليّ. كان تحرري من الأوهام قد زين وثلّم مشاعري ومتعي المعهودة. الحديقة ينقصها الشذا والغابة تفقد جاذبيتها. وبدا العالم من حولي، كبيع التصفية لبضائع مستعملة من العام الماضي، باهتاً خالياً من أية فتنة. الكتب ركام من الورق. والموسيقى صخب من الصرير. هكذا تتساقط الأوراق عن الشجرة في الخريف، الشجرة التي لاتشعر بالمطر المتساقط على جوانبها ولا بالشمس أو الصقيع ولا بالحياة المتسربة تدريجياً إلى داخلها. الشجرة لاتموت. إنها تنتظر.

تقرر أن يتم إرسالي إلى مدرسة داخلية في نهاية العطلة. للمرة الأولى سأعيش بعيداً عن البيت. أحياناً صارت أمي تتقرب مني بلطف خاص وكأنها تستبق الزمن معي لتوحي لي بالحب وبالشوق إلى البيت، وبما أحتفظ به في قلبي. وذهب دميان في رحلة. فبقيت وحيداً.

4

بياتريس

مع نهاية العطل، ودون أن أرى صديقي، ذهبت إلى «القديس...»(*). رافقني والداي وعهدا بي إلى بيت داخلي للأولاد يديره أحد معلمي المدرسة الإعدادية. ولابد أن الرعب كان سيشلّهما لو عرفا في أي عالم تركاني.

وظل السؤال قائماً: هل سأصبح في النهاية ابناً ممتازاً ومواطناً صالحاً أم أن طبيعتي متوجهة باتجاه مختلف كلياً عن ذلك؟ إن محاولتي لتحقيق السعادة في ظل البيت الأبوي قد طالت، وقد نجحت بين حين وآخر؛ إلا أنها في النهاية فشلت تماماً.

الخواء الغريب والعزلة التي بدأت أشعر بها لأول مرة بعد تثبيتي دينياً (آه كم سيصبح أليفاً في ما بعد ذلك الجو السطحي الموحش!) لم يمرا إلا ببطء شديد. كان وداعي للبيت مدهشاً في سهولته. وقد أخجلني أنني لم أعد أشعر بالشوق إليه. بكت أخواتي دون سبب، وظلت عيناي جافتين، ودهشت من نفسي. لقد كنت دائماً ولداً عاطفياً وطيباً في الأعماق. أما الآن فقد تغيرت تغيراً كاملاً. صرت أتصرف بلا مبالاة تامة تجاه العالم الخارجي. ولعدة أيام، بعد ذلك، هيمنت عليّ الأصوات الداخلية، التيارات الجوانية، التيارات المعتمة الممنوعة التي كانت تهدر

(*) المدرسة. وقد تركها المؤلف بلا اسم.

تحت السطح. لقد ازداد طولي في نصف السنة الأخير عدة إنشات. وصرت أمشي بهزالي وأنا نصف منته في هذا العالم. وفقدت أية فتنة كان يمكن أن تكون لي. وصرت أشعر أنه لايمكن لأحد أن يحبني وأنا ما أنا عليه. وكثيراً ما كنت أحس بالشوق لماكس دميان، لكنني وبالقدر ذاته كنت أكرهه وأتهمه بأنه السبب في إفقار حياتي التي أمسكت بي خلال تأرجحها، مثل المرض الخبيث.

لم أكن محبوباً أو محترماً في المدرسة الداخلية. كنت أثار، في البدء، ثم يتم تجنبي ويُنظر إليّ كأنني متسلل أو كشاذ غير مرغوب فيه. ووافقت على هذا الدور لا بل رحت أبالغ فيه. وقسرت نفسي على عزلة ذاتية لابد أنها كانت تبدو للغرباء احتقاراً دائماً وذكورياً للعالم؛ بينما في الحقيقة كنت كثيراً ما أخضع سراً لنوبات منهكة من التشاؤم واليأس. أما ما يتعلق بالمدرسة فقد استطعت الاعتماد على المعلومات المتراكمة من صفي السابق - الصف الحالي كان أقل بشكل ما من الصف الذي تركته - وبدأت أنظر إلى التلاميذ الذين هم في مثل سني باحتقار وعلى أنهم ليسوا أكثر من أطفال.

واستمرت الأمور على هذا الحال عاماً، أو أكثر. والزيارات التي كنت أقوم بها، بشكل متقطع، إلى البيت كانت تجعلني أواجه البرودة فأحس بالسرور للرحيل من جديد.

كان ذلك في أول نوفمبر (تشرين الثاني). وكنت قد تعودت على القيام ببعض النزهات التأملية القصيرة على قدمي أياً كان الطقس، فأستمتع فيها بنوع من النشوة الممزوجة بالسوداوية واحتقار العالم وكره الذات. وهكذا كنت أتجول ذات مساء في العتم الضبابي الذي يلف المدينة. كان الطريق العريض الموصل إلى حديقة عامة مهجوراً وبدا كأنه يدعوني إلى الدخول. وكان الممر مغطى بكثافة بالأوراق المتساقطة التي كنت أبعثرها بقدمي غاضباً. كانت هناك رائحة رطوبة واخزة وأشجار بعيدة ذات ظلال كالأشباح تزداد ضخامة بفعل الضباب.

وقفت متردداً في آخر الطريق أحدق إلى الخضرة الداكنة وأنا أستنشق العبير الرطب للعفونة وللموات اللذين استجاب لهما، بترحيب،

شيء ما في أعماقي. ومن أحد الممرات الجانبية خطا شخص ما وسترته تنتفخ حين يمشي. وكنت على وشك أن أتابع سيري عندما ناداني صوت: «مرحباً يا سنكلير».

وتقدم مني. كان هذا ألفونس بيك أكبر أولاد القسم الداخلي سناً. كنت دائماً أسر لرؤيته. ولاشيء في نفسي ضده إلا أنه كان يعاملني؛ وجميع الآخرين الذين هم أصغر منه، بنوع من الاحتقار الخؤولي الساخر. كان يشاع عنه أنه قوي كالدب وأن لديه معلماً، في إقامتنا الداخلية، طوع بنانه. إنه بطل العديد من شائعات التلاميذ.

ـ ما الذي تفعله هنا؟ قال بدماثة يتميز بها الأولاد الكبار عندما يضطرون بين حين وآخر للتحدث مع واحد منا. سأراهن بأي شيء على أنك تؤلف قصيدة.

ـ ما كان لي أن أفكر بذلك. أجبته بجفاف.

ضحك ضحكة عالية ومشى إلى جانبي وحدثني قليلاً بطريقة لم أتعودها منذ زمن بعيد.

ـ لست في حاجة إلى الخوف من أنني قد لاأفهم يا سنكلير. هناك شيء ما في المشي مع الأفكار الخريفية وسط ضباب المساء. أنا أعرف أن المرء يود لو يؤلف القصائد في وقت كهذا. عن الطبيعة الهاجعة، بالتأكيد، وعن الشباب الضائع الذي يشبهها. هاينريش هاينه مثلاً.

قلت مدافعاً عن نفسي: لست عاطفياً إلى هذا الحد.

ـ طيب، فلننسَ الموضوع. ولكن يبدو لي أنه في طقس كهذا حين يبحث المرء عن مكان هادئ يستطيع أن يشرب فيه كأساً طيّبة من الخمر أو شيئاً آخر فإنه يفعل عين العقل. هل تشاركني؟ بالمصادفة أنا وحدي تماماً في هذا الوقت. أم أنك تفضل أن لاتشاركني؟ لا أريد أن أكون الشخص الذي يقودك في طريق الضلال. يا عجوزي(*). أعني إن صادف أن كنت من النوع الذي يسير في الطريق المستقيم والضيق.

(*) وردت هذه الكلمة بالفرنسية.

سرعان ما كنا جالسين في حانة صغيرة في طرف المدينة ونحن نشرب خمرة رديئة ونقرع كأسينا السميكتين. لم يعجبني الأمر كثيراً ولكنه شيء جديد على الأقل. ولأنني لست متعوداً على الخمر سرعان ما انحلت عقدة لساني. كما لو أن نافذة داخلية قد انفتحت ومن خلالها كان العالم يتأجج. منذ كم من الزمن، منذ كم من الزمن الطويل الرهيب لم أتحدث إلى أحد؟! وبدأ خيالي يركض معي. وفي النهاية انطلقت بقصة قابيل وهابيل.

كان بيك يستمع باستمتاع واضح ـ أخيراً ها هنا شخص أستطيع أن أمنحه شيئاً! ربت على كتفي ودعاني بالزميل، فامتلأ قلبي منتشياً لهذه الفرصة للاسترسال تلبية لحاجة طال احتباسها للتواصل في الحديث وفرحاً باعتراف ولد أكبر مني. وحين سماني السافل الصغير الملعون البارع انسكبت الكلمات في روحي مثل خمرة حلوة. وشعشع العالم بألوان جديدة، واندفعت الأفكار من مئات الينابيع المتفجرة. وتأججت نار الحماس في داخلي. ناقشنا معلمينا وزملاءنا التلاميذ وبدا لي أن كلاً منا يفهم الآخر جيداً. تحدثنا عن اليونانيين والوثنيين. وكان بيك يريدني بإلحاح أن أعترف له أنني قد سبق لي أن نمت مع بنات. لكن هذا لم يحدث. لم يسبق لي أن جربت شيئاً في هذا المجال، لاشيء مما يستحق أن يُروى. وما كنت أشعر به، وما كنت أبنيه في خيالي، كان يؤلمني من الداخل لكنه لم يتراخَ ولم يصبح قابلاً للتوصيل بفعل الخمر. بيك كان يعرف أكثر بكثير عن البنات. ولذا رحت أصغي إلى مآثره دون أن تكون لديّ القدرة على النطق بكلمة واحدة. كنت أسمع أشياء لاتصدق. الأشياء التي لم أكن أظن أنها ممكنة صارت أموراً يومية ومألوفة وبدت طبيعية. ألفونس بيك، الذي كان في الثامنة عشرة، بدا قادراً على أن يرسم لوحة كبيرة من الخبرة والتجربة. فلقد تعلم، مثلاً، أن ما يضحك في البنات أنهنّ يردن الاكتفاء بالغزل والمداعبة وهذا ممتاز ولكنه ليس الشيء الحقيقي. ومن أجل الشيء الحقيقي يأمل المرء في نجاح أكبر مع النساء. النساء معقولات أكثر، فالسيدة جاغيلت، مثلاً، التي تمتلك المخزن في المحطة، معها يستطيع الإنسان أن يتحدث في الشغل، والأمور التي تحدث وراء طاولة الحساب عندها لاتصلح للذكر في كتاب.

كنت أجلس مشدوهاً ومصعوقاً. بالتأكيد ما كان من الممكن أن أحب السيدة جاغيلت - لكن الأخبار كانت لاتصدق. يبدو أن هناك مصادر خفية للمتعة، وللكبار بشكل خاص، لم أكن حتى قد حلمت بها. إن فيها شيئاً ما غير صحيح، ويبدو أقل جاذبية وأكثر عادية من الحب، حسبما افترضت أن يكون عليه - ولكن على الأقل. هذا واقعي، هذه هي الحياة والمغامرة، وإلى جانبي يجلس شخص قد جربه ويبدو له الأمر طبيعياً.

ما أن بلغت محادثتنا هذا الحد من التصاعد حتى بدأت تخفت تدريجياً لم أعد السافل الصغير الملعون البارع؛ بل تقلصت إلى مجرد ولد يصغي لحديث رجل. ومع ذلك - وبالمقارنة مع ما كانت عليه حياتي خلال أشهر - ظل الأمر ممتعاً فهذه هي الجنة. وإلى جانب ذلك فإن الأمر، كما بدأت أدرك بالتدريج، ممنوع منعاً باتاً، ابتداء بوجودنا في البار وانتهاء بموضوع حديثنا. على الأقل بالنسبة لي كانت له نكهة العصيان.

أستطيع تذكر هذه الليلة بوضوح شديد. عدنا إلى المنزل في الجو الرطب ونحن نمر بمصابيح غازية تنشر ضوءاً ضئيلاً في آخر هذا الليل: للمرة الأولى في حياتي كنت سكراناً. ولم يكن الأمر مريحاً، بل في الحقيقة هو مزعج. لكن فيه شيئاً، رعشة حلاوة عربدة العصيان. هذه هي الحياة والنفس. لقد قام بيك بعمله جيداً من ناحية الاهتمام بي على الرغم من أنه شتمني بقسوة وسماني «المبتدئ اللعين» وأوصلني إلى المنزل ما بين حملي وقيادتي. وهناك نجح في تهريبي عبر نافذة مفتوحة إلى الردهة.

الواقع الصاحي الذي استيقظت عليه بعد نوم قصير كنوم الأموات كان متوافقاً مع إحباط مؤلم وعديم الإحساس. جلست في سريري وقميصي مايزال عليّ، أما بقية ملابسي فموزعة على الأرض وتفوح منها رائحة التبغ والقيء. وما بين نوبات الصداع والقرف والظمأ مرت ببالي صورة لم أرها منذ زمن طويل؛ تصورت بيت.أبوي، بيتي، أبي وأمي وأخواتي، والحديقة. كنت أستطيع رؤية غرفة النوم الأليفة والمدرسة والسوق. وكنت أستطيع رؤية دميان ودروس الدين - كان كل

شيء جميلاً ونقياً، وكل شيء، هذا كله ـ كما أدركت الآن ـ كان لي البارحة قبل عدة ساعات، وكان مايزال ينتظرني. أما الآن، وفي هذه الساعة بالذات، فقد بدا كل شيء منتهكاً وملعوناً، ولم يعد لي، صار يرفضني وينظر إليّ بقرف. كل ما هو عزيز وأليف، كل ما سبق أن منحني إياه أبواي منذ أيام حدائق طفولتي البعيدة، كل قبلة من أمي، كل عيد ميلاد، وكل صباح أحد مقدس ومشبع بالنور في البيت، كل زهرة في الحديقة ـ كل شيء قد خُرب، كل شيء قد دست عليه أنا ولو أن يد القانون تطالني أو تقيدني وتكممني وتقودني إلى المشنقة بصفتي حثالة المجتمع ومدنس المعبد، لما اعترضت ولسرت معها بطوعي ولاعتبرت حكمها عادلاً ومنصفاً.

هذا ما كانت عليه حالتي، داخلياً! أنا الذي كنت أتعامل مع العالم باحتقار! أنا الذي كنت متكبراً وأشارك دميان أفكاره! هذا ما أنا عليه، قطعة براز، خنزير قذر، سكير وقذر، كريه وغر، وحش وضيع تنحط به شهواته الخبيثة. هذا ما أنا عليه، أنا، الذي جاء من تلك الحدائق الطاهرة حيث كل شيء نظيف وبهي وحنون، أنا الذي كنت أحب موسيقى باخ والشعر الجميل. بقرف وغضب كنت ماأزال أسمع حياتي، وأنا سكران وعنيد، وهي تنخلع مني بضحكة بلهاء، بعنف واندفاع. هذا ما أنا عليه.

وعلى الرغم من كل شيء فإنني كنت أستمتع، تقريباً، بآلامي. لقد صرت أعمى وعديم الإحساس. صمت قلبي طويلاً، وتكورت بجبن وضعف في زاوية بحيث أصبح اتهام الذات هذا، وهذا الخوف، وهذه المشاعر الرهيبة، مقبولة. على الأقل هي أحاسيس من نوع ما، على الأقل هناك نوع من اللهب. القلب، على الأقل، كان يخفق. ووسط تشوشي أحسست بشيء أشبه ما يكون بالتحرر بين هذا البؤس كله.

وفي الوقت ذاته، وبالنظر إلي من الخارج، كنت أنحدر بسرعة شديدة وجنون سكرتي الأولى سرعان ما تلاه جنون آخر وآخر. مرات عديدة ذهبنا إلى البارات وصخبنا في المدرسة. كنت من أصغر المشاركين ولكن سرعان ما لم أعد مجرد غر يضطر الآخرون لأخذه معهم، بل أصبحت زعيم المشاغبين والنجم بينهم وصرت رائد البارات

الجريء والمشهور. ومرة أخرى أعدت انتمائي إلى عالم الظلمة وإلى الشيطان. وفي هذا العالم صارت لي سمعة الزميل الشيطاني.

وعلى الرغم من ذلك كنت أحس بالتعاسة. كنت أعيش صخب تدمير الذات، وفي الوقت الذي كان أصدقائي فيه ينظرون إليّ كقائد وزميل ظريف وحاد الذكاء، إلا أنني في أعماق نفسي كنت حزيناً. وما أزال أستطيع تذكر الدموع وهي تندفع إلى عيني كلما رأيت أولاداً يلعبون في الشارع صباح الأحد وأنا خارج من البار. أولاد سُرح شعرهم للتو ولبسوا أفضل ما لديهم من أجل يوم الأحد. أما الأصدقاء الذين كانوا يجالسونني في أحط أنواع الخمارات بين بقايا البيرة الموحلة والطاولات القذر، فقد، كنت أسليهم بتلميحاتي ذات الشكوك الجديدة عليهم؛ بل وحتى كنت أصدمهم. ولكن في أعماق قلبي كنت متألماً من كل شيء أستصغره وكنت أنتحب أمام روحي وماضيَّ وأمام أمي وإلهي.

هناك سبب مهم وراء عدم انسجامي الكامل مع رفاقي، وشعوري بالوحدة بينهم، الأمر الذي جعلني أعاني الكثير. لقد كنت بطل البارات، وكنت ساخراً لإرضاء أذواق الأكثر وحشية منهم. أظهرت ذكاء وجرأة في أفكاري وتلميحاتي حول المعلمين والمدرسة والآباء والكنيسة. وكنت، أيضاً، أحتمل سماع أقذر القصص لا بل إنني كنت أغامر بين حين وآخر بحكاية. لكنني لم أكن أرافق زملائي حين يذهبون إلى النساء. كنت وحيداً ومليئاً بتوق حاد إلى الحب، توق مُضنٍ ويائس. وفي الوقت ذاته، لو حكم عليّ من خلال كلامي، لكنت بدوت شهوانياً واقعياً. لم يكن بينهم من هو أسرع بالتأذي مني أو أسرع في الخجل. وحين كنت أرى بنات المدينة الفتيات المؤدبات وهن يمشين أمامي، جميلات ونظيفات، بريئات وبهيات، فقد كنَّ يبدين مثل أحلام طاهرة مدهشة وأكثر ملاءمة لي بما لايقاس. ومر وقت طويل وأنا لاأستطيع أن أجبر نفسي حتى على دخول حانوت السيدة جاغيلت في المحطة كأنني كنت أحمر خجلاً وأنا أنظر إليها متذكراً ما حكاه لي ألفونس بيك.

وكلما زاد إدراكي لأنني سأبقى وحيداً دائماً ومختلفاً بين شلة

أصدقائي فإن قدرتي على تركهم تتناقص. والحقيقة أنني لم أعد أعرف ما إذا كان السكر والعربدة يمنحانني المتعة فعلاً أم لا. والأكثر من ذلك أنني لم أتعود على الشرب تماماً وإلى حد أن أفقد معه الإحساس بالآثار المربكة بعده. كنت وكأنني مضطر لفعل ذلك كله. لقد كنت أفعل ما كان يجب أن أفعله لأنني لا أعرف شيئاً آخر أفعله بنفسي. كنت أخاف من البقاء وحيداً لمدة طويلة، وأخاف من الحالات البريئة والجنون التي قد تتغلب عليّ أو أخاف من أفكار الحب التي تضطرم في داخلي.

ما كنت أفتقد إليه أكثر من أي شيء آخر هو الصديق. كان هناك اثنان أو ثلاثة من الزملاء التلاميذ ممن يمكن أن أهتم بهم ولكنهم من ذوي السمعة الحسنة. وكانت رذائلي، منذ وقت طويل، قد أصبحت سراً مكشوفاً. كانوا يتجنبونني، وكنت أعتبر متمرداً ميؤوساً منه تنزلق الأرض من تحت قدميه. وكان المعلمون يعرفون أخباري جيداً، ولقد عوقبت بقسوة عدة مرات وصار الطرد النهائي مسألة وقت. وأدركت أنني تلميذ خائب، لكنني كابرت بمشقة فحصاً بعد الآخر، وأنا أشعر دائماً أن الأمور لايمكن أن تستمر على هذا المنوال طويلاً.

هناك طرق عديدة يستطيع الله أن يجعلنا بها وحيدين ويقودنا بها إلى أنفسنا. وتلك هي الطريقة التي عاملني بها في ذلك الحين. كان الأمر أشبه بحلم مزعج. أستطيع الآن أن أرى نفسي: وأنا أزحف في طريقي البغيض القذر، وسط القذارة والطين، بين زجاجات البيرة المكسورة والليالي الماجنة المهدورة، حالماً مسحوراً، قلقاً ومرهقاً. هناك أحلام تكون فيها في طريقك إلى الأميرة ثم تغرّز في مستنقع في الحواري الخلفية المفعمة بالروائح البشعة والنفايات. هكذا كان الأمر معي. وبتلك الطريقة غير المريحة حُكم عليّ أن أكون وحيداً وقد أقمت بيني وبين طفولتي باباً مغلقاً إلى الجنة معززاً بحرس قساة لامعين. تلك كانت البداية، يقظة التوق المرضي إلى نفسي السابقة.

إلا أنني لم أبلغ من القسوة حداً يجعلني لا أرتعش تحت وخزات الخوف عندما ظهر والدي، وقد أقلقته رسائل معلمي، لأول مرة في مدرسة القديس - وواجهني دون توقع. ومرة أخرى، في ذلك الشتاء،

حين جاء للمرة الثانية، لم يبق هناك ما يمكن أن يؤثر فيّ ويحركني. تركته يوبخني ويستعطفني، ويذكرني بأمي. وأخيراً عند نهاية المقابلة ازداد غضبه فقال إن لم أتغير فإنه سيجعلهم يطردونني من المدرسة مخزياً لكي أوضع في إصلاحية ـ طيب. فليفعل! وحين ذهب هذه المرة شعرت بالحزن عليه. إنه لم ينجز شيئاً. لم يستطع أن يجد طريقة إليّ ـ وفي لحظات كنت أحس أن هذا ما يستحقه.

لايمكن أن يكون قد بلغ استهتاري بنفسي حداً أكبر من ذلك. بأسلوبي الفظ والغريب كان الذهاب إلى البارات والتباهي بذلك هو أسلوبي في الخصام مع العالم. كانت تلك طريقتي في الاحتجاج. وكنت خلال ذلك أدمر نفسي. ولكنني في أحيان أخرى كنت أفهم الحالة كما يلي: إن كان العالم غير قادر على الاستفادة ممن هم مثلي، وإذا لم يكن لديه مكان أفضل أو مهام أسمى لهم، فإن من هم مثلي، في هذه الحالة، سوف يتدهورون؛ والخسارة، عندها، ستكون خسارة العالم.

كانت عطلة عيد الميلاد أمراً غير ممتع في ذلك العام. انزعجت أمي كثيراً حين رأتني. كنت قد ازددت طولاً، وصار وجهي النحيل يبدو رمادياً ومهزولاً، بقسمات رخوة وعينين حمراوين. أول زغب الشاربين والنظارات التي كنت قد بدأت بلبسها جعلا شكلي أكثر غرابة. خجلت أخواتي مني فاختفين ورحن يتلصصن. كل شيء كان مخيباً. والحديث مع أبي في مكتبته كان مخيباً ومريراً، إضافة إلى تبادل مخيب للتحيات مع بعض الأقارب، وبشكل خاص أمسية عيد الميلاد ذاتها كانت مزعجة. منذ أن كنت طفلاً صغيراً كانت هذه الليلة حدثاً عظيماً في بيتنا. كان المساء مهرجاناً من الحب والامتنان تتجدد فيه الرابطة بين الطفل وأبويه. أما هذا المساء فقد كان كل شيء فيه إحباطاً وإرباكاً فقط. وكالعادة قرأ والدي المقطع المتعلق بالرعاة في الحقول «يرعون قطعانهم» وكالعادة وقفت أخواتي مزهوات أمام طاولة حملت بالهدايا، كان صوت والدي تشوبه نبرة الغضب وقد بدا وجهه عجوزاً ومتوتراً، وأمي كانت حزينة. بدا كل شيء في غير مكانه: الهدايا وتحيات عيد الميلاد، قراءة الإنجيل والشجرة المنورة كانت رائحة كعكة الزنجبيل طيبة وكانت ترشح ذكريات أحلى وأطيب. وكان

شذا شجرة الميلاد يحكي عن عالم لم يعد موجوداً. وصرت أتمنى أن ينتهي هذا المساء وأن تنتهي العطلة.

استمر الأمر على هذا المنوال طوال الشتاء. بعد عودتي بقليل تلقيت إنذاراً شديد اللهجة من مجلس المعلمين وتهديداً بالطرد. لايمكن أن تستمر الأمور هكذا؛ ولم أهتم.

كنت أحمل حقداً خاصاً جداً على ماكس دميان، الذي لم أره مرة أخرى بعد ذلك. ولقد كتبت إليه مرتين خلال الأشهر الأولى من دوامي في المدرسة لكنني لم أتلقَّ جواباً، ولذا فإنني لم أزره في العطلة.

في الحديقة ذاتها التي التقيت فيها بألفونس بيك في الخريف لفتت انتباهي في أوائل الربيع فتاة عندما كانت أشواك السياج قد بدأت تزهر. كنت أتمشى وحيداً ورأسي مليء بالأفكار الحقيرة والمتاعب - لأن صحتي كانت قد بدأت تتدهور - ولكي يزداد الأمر سوءاً كنت دائماً في ضائقة مالية ومديناً للأصدقاء بمبالغ كبيرة مما كان يجعلني مضطراً دائماً لاختراع نفقات أتلقى من أجلها نقوداً من البيت، وفي عدد من الحوانيت تركت الفواتير تتراكم حول التبغ وأشياء أخرى مشابهة. ولم يكن هذا ليهمني كثيراً. فإن كان وجودي كله مهيئاً للوصول إلى نهاية مفاجئة - إذا أغرقت نفسي أو أرسلت إلى إصلاحية - فإن حسابات صغيرة إضافية لم تكن لتعني شيئاً. لكنني كنت مجبراً على أن أعيش في مواجهة هذه التفاصيل المزعجة: كانت تجعلني بائساً.

في ذلك اليوم الربيعي في الحديقة رأيت امرأة فتية جذبتني. كانت طويلة ونحيلة أنيقة الملابس ولها وجه صبياني ذكي. أعجبتني فوراً. إنها من النوع الذي أحب ولذا فقد بدأت تملأ مخيلتي. ربما لم تكن أكبر مني سناً بكثير لكنها كانت تبدو ناضجة أكثر مني بكثير، ذات شخصية واضحة، امرأة مكتملة النضج ولكن مع لمسة بدانة وتصابٍ في وجهها وهذا ما أحببته فيها قبل كل شيء.

لم يسبق لي أن فكرت في مسألة التقرب إلى فتاة أحببتها ولم أفكر في حالة كهذه. ولكن الانطباع الذي خلفته لدي كان أعمق من أي انطباع مسبق. وقد سبق أن كان للافتتان ذلك التأثير العميق على حياتي.

وبغتة برزت أمامي صورة جديدة، صورة ودودة وعميقة الأثر. ولم تكن هناك حاجة أو دافع أكثر عمقاً أو أكثر اتقاداً من الحاجة إلى التعبد والإعجاب. أعطيتها اسم بياتريس. وعلى الرغم من أنني لم أكن قد قرأت دانتي، إلا أنني كنت أعرف عن بياتريس من لوحة إنكليزية كانت لديّ نسخة عنها. وكان فيها امرأة من نمط ما قبل رافائيل، ذات أطراف طويلة ونحيلة، ولها رأس طويل ويدان أثيريتان وقسمات أثيرية. ولم تكن فتاتي الجميلة تشبهها تماماً على الرغم من أنها أيضاً تكشف عن هذا الشكل النحيل الصبياني الذي كنت أحب، وفيها شيء من تلك الخاصية الأثيرية الروحانية في وجهها.

وعلى الرغم من أنني لم أوجه لبياتريس أية كلمة، إلا أنها مارست تأثيراً كبيراً عليّ في ذلك الحين. كانت ترفع خيالها أمامي وتحقق لي الوصول إلى مزار مقدس وكانت تحولني إلى عابد في معبد. ومن اليوم الأول إلى الثاني ظللت نظيفاً من البارات ومن المآثر الليلية. استطعت مرة أخرى أن أبقى وحيداً مع نفسي وأنا أستمتع بالقراءة وأن أتمشى طويلاً.

تحولي المفاجئ جرّ عليّ الكثير من السخرية في أعقابه، لكن لدي الآن ما أحبه وأبجله، صار لي من جديد مثل أعلى، صارت الحياة غنية بالاعلان عن سر وبالشعور بفجر جعلني منيعاً على المآخذ كلها. لقد عدت مرة أخرى إلى نفسي ولو، حتى، كعبد وخادم لصورة عالقة في الذهن.

وإنني لأجد صعوبة في العودة إلى التفكير في ذلك الوقت دون نوع من الولع. ومرة أخرى رحت أحاول جاهداً بناء «عالم نور» أليف لنفسي ومن ترنحات فترة من التخريب. ومرة أخرى ضحيت بكل ما هو في داخلي من أجل طرد العتم والشر من نفسي. وأكثر من ذلك «عالم النور» الحالي هذا كان إلى حد ما من صنعي. لم يعد مهرباً ولا زحفاً إلى الوراء نحو الأم ونحو أمان اللامسؤولية. إنه واجب جديد، واجب اخترعته ورغبت فيه بحريتي وبمسؤولية وسيطرة على الذات وغرائزي الجنسية، ذلك العذاب الذي كنت أعيش هرباً دائماً منه، صار عرضة للتحول إلى روحانيات وإلى تفان في هذه النار المقدسة. كل ما هو

معتم وكريه صار عرضة للطرد، ولم يعد هناك مجال لليالي العذاب، ولا للإثارة أمام الصور الداعرة، ولا للتلصص من الأبواب المحرمة، ولا للشهوات. وبدلاً من هذا! كله أقمت مذبحي لصورة بياتريس. وبتكريس نفسي لها كنت أكرس نفسي للروح وللآلهة، وبذلك الجزء من الحياة الذي استقيته من قوى الظلام كنت أضحي من أجل قوى النور. ولم يكن هدفي الغبطة بل الطهارة، لم يكن السعادة بل الجمال والروحانية.

مذهب بياتريس، هذا، غير حياتي كلياً. بالأمس كنت شهوانياً قبل أوانه واليوم أنا القندلفت الذي له هدف واحد هو أن يصبح قديساً، ولم أكتف بتجنب الحياة السيئة التي صرت متعوداً عليها، بل رحت أسعى إلى تحويل نفسي بتقديم الطهارة والسمو إلى كل جانب من جوانب الحياة. وفي هذا المجال رحت أفكر في عاداتي المتعلقة بالطعام والشراب وبلغتي ولباسي. صرت أبدأ صباحي بحمام بارد، كلفني جهداً كبيراً في البداية، صار سلوكي جاداً ومحترماً. صرت أتصرف بشكل رسمي وأسير بخطى بطيئة وموزونة، وربما بدا هذا مضحكاً للغرباء أما بالنسبة لي فقد كان طقس عبادة صادقاً.

بين التصرفات الجديدة التي قمت بها لأعبر عن قناعاتي الجديدة صار واحد منها يتمتع بأهمية خاصة بالنسبة لي. ونقطة البداية هي أن النسخة التي لديّ من الصورة الانكليزية لم تكن تشبه فتاتي، بياتريس، بما فيه الكفاية. وبمتعة وأمل جديدين اشتريت ورقاً جميلاً، وألواناً، وفراشي، وأخذتها إلى غرفتي - في ذلك الحين كنت قد أعطيت غرفة مستقلة - وهيأت صفيحتي وكأسي وصحون البورسلين والأقلام. لقد أفرحتني الألوان المرهفة في الأنابيب الصغيرة التي اشتريتها. وكان بينها لون أخضر كروم ناري أظن أنني مازال أستطيع أن أراه وهو يتوهج أمامي لأول مرة في الصحن الأبيض الصغير.

بدأت بحرص بالغ. كان رسم الوجه صعباً. ولذا أردت أن أجرب نفسي بشيء آخر في البداية. رسمت زينة وأزهاراً ومناظر طبيعية صغيرة خيالية؛ شجرة قرب كنيسة صغيرة، جسراً رومانياً ومعه أشجار سرو. كنت أحياناً أغرق في هذه اللعبة بسعادة طفل صغير مع علبة ألوانه. وأخيراً بدأت بصورة بياتريس.

عدة محاولات فشلت فشلاً ذريعاً فأتلفتها. وكلما زادت جهودي في تخيل وجه الفتاة التي كنت أصادفها في الشارع كان نجاحي يزداد ضآلة. وأخيراً ألغيت المحاولة ورضيت بالاستسلام لخيالي وحدسي اللذين برزا تلقائياً من الضربات الأولى وكأنهما ينبعان من اللون والفرشاة بالذات. كان وجهاً من الأحلام ذلك الذي توصلت إليه ولم أكن مخيباً به. إلا أنني أصررت. وكان كل «سكيتش» جديد أكثر تميزاً وقرباً من النموذج الذي أرغب فيه حتى وهو لايمثل الواقع بأية حال.

تعودت تدريجياً على الرسم العشوائي للخطوط بفرشاة رسم حالمة وعلى تلوين مساحات دون نموذج مسبق في الذهن وكانت كلها نتيجة التلمسات اللاهية للاوعي. وأخيراً ذات يوم رسمت، ودون أن أنتبه، وجهاً أستجبتُ له استجابة أقوى من استجابتي لأي من الوجوه الأخرى. لم يكن وجه تلك الفتاة ـ ولم يعد المقصود الوصول إليه. كان شيئاً آخر، شيئاً غير حقيقي لكنه لم يكن بالنسبة لي أقل قيمة. كان أقرب إلى وجه الصبي منه إلى وجه الفتاة، ولم يكن الشعر تبنيّاً شاحباً مثل شعر فتاتي الحلوة، بل كان رمادياً قاتماً مع وهج محمر. وكانت الذقن قوية وتوحي بالتصميم، والفم كان مثل وردة حمراء. بشكل عام كان قاسياً وأشبه بالقناع إلا أنه كان موحياً ومترعاً بحياة سرية نابعة منه بالذات.

وحين جلست أمام الرسم المنتهي كان له تأثير غريب عليّ. كان يشبه نوعاً من صور الآلهة أو الأقنعة المقدسة، نصفه ذكر ونصفه أنثى، بلا عمر، هادف بمقدار ما هو حالم، وجامد بمقدار ما هو حي سراً. كان يبدو أن لدى هذا الوجه رسالة لي، إنه يخصنني، إنه يطلب مني شيئاً ما. كان فيه شبه بشخص ما، لكنني لم أعرف من هو.

ظلت الصورة تهيمن على أفكاري وتشاركني حياتي فترة من الزمن. خبأتها في درج لكي لايأخذها أحد ويسخر مني بها. ولكنني ماأن أصبح وحدي في غرفتي الصغيرة حتى أخرجها وأحادثها. في المساء كنت أعلقها على الجدار مواجهة لسريري وأظل أحدق إليها حتى أنام. وفي الصباح كانت أول ما تقع عيناي عليه.

في هذا الوقت بالتحديد بدأت من جديد أحلم أحلاماً كثيرة، كما

سبق أن كنت وأنا طفل. وشعرت كما لو أنني لم أحلم منذ سنوات. ولكن الأحلام قد عادت الآن بصورة جديدة. ومرة بعد أخرى صارت الصورة تظهر بينها حية وواضحة، ودودة معي أو عدائية، أحياناً تتشوه بتكشيرة، وأحياناً في غاية الجمال والانسجام والسمو.

وفي صباح أحد الأيام، وحين استيقظت من واحد من هذه الأحلام، عرفت الوجه فوراً. كان ينظر إليّ وكأنه متآلف معي بشكل لايصدق. وبدا وكأنه ينطق باسمي. كان يبدو أنه يعرف من أكون، كأنه أم، كأن عينيه كانتا متركزتين عليّ منذ بدء الزمان. وبقلب خافق رحت أحدق إلى الورقة، إلى الشعر الرمادي المتراص، الفم نصف الأنثوي، الجبهة الصارمة بألقها الغريب (لقد صارت هكذا تلقائياً بعد أن جفت) وشعرت بنفسي أقرب فأقرب إلى التعرف عليها، إلى إعادة اكتشافها، إلى معرفتها.

قفزت من سريري وتقدمت من الوجه. وعن بعد إنشات تطلعت في عينيه المفتحتين الواسعتين المخضرتين الصارمتين، والعين اليمنى أعلى من العين اليسرى بقليل. وبغتة ارتعشت العين اليمنى، رعشة خفيفة وصغيرة لكنها رعشة لاتخطئها العين، واستطعت أن أتعرف على الصورة...

لِمَ استغرق الأمر مني كل هذا الوقت؟ لقد كان وجه دميان.

في ما بعد كثيراً ما كنت أقارن الصورة بتقاسيم دميان الحقيقة كما أتذكرها. لم تكن أبداً التقاسيم نفسها على الرغم من وجود تشابه. ولكن مع ذلك فهو دميان.

ذات مرة انحرفت شمس الصيف المبكر الحمراء عن نافذة تواجه الغرب. وبدأ الظلام يخيم على غرفتي. وخطر لي أن أعلق صورة بياتريس، أو دميان، على قضبان النافذة لكي أراقب شمس المساء وهي تشع من خلالها. غامت الخطوط التي تحدد الوجه لكن العينين بحوافهما الحمراء، والألق على الجبهة والفم الأحمر المشع... ظل هذا كله يتوهج بعنف من السطح، جلست مدة طويلة في مواجهتها، وحتى بعد غياب الشمس. وتدريجياً بدأت أحس أن هذا ليس بياتريس ولا

دميان بل هو أنا. ليس بمعنى أن الصورة تشبهني - بل إنها ما حدد لي حياتي، نفسي الداخلية، مصيري أو ديموني(*). هكذا يجب أن يبدو صديقي إن كنت سأجد في المستقبل كله صديقاً من جديد. وهكذا ستكون المرأة التي أحبها إن أحببت امرأة في مستقبلي كله. وهكذا ستكون حياتي ووفاتي، هذه نغمة مصيري وإيقاعه.

خلال تلك الأسابيع كنت قد بدأت قراءة كتاب أثَّر فيَّ أكثر مما أثر أي كتاب آخر سبق أن قرأت. وحتى في ما بعد فقد ندر أن عرفت كتاباً أكثر قوة، باستثناء نيتشه ربما. كان كتاباً لنوفاليس، يحتوي على رسائل وأقوال مأثورة لم أفهم منها إلا القليل لكن كانت لها جاذبية غامضة ولايمكن التعبير عنها. ويردُ إلى ذاكرتي الآن أحد الأقوال المأثورة وكنت قد كتبته تحت الصورة: «المصير والمزاج كلمتان لمعنى واحد ومفهوم واحد». لقد صار هذا واضحاً لي الآن.

كثيراً ما كنت أرى الفتاة التي سميتها بياتريس لكنني لم أكن أشعر بأية عاطفة أثناء هذه اللقاءات، بل مجرد تهويم لطيف وحس داخلي ناعم يقول: أنا وأنت مرتبطان ولكن ليس أنت بالذات بل صورتك. أنت جزء من مصيري.

وهيمن عليّ من جديد شوقي إلى دميان. منذ سنوات لم أتلق شيئاً من أخباره. قابلته مرة خلال إحدى العطل. وأدركت الآن أنني قد أخفيت هذا اللقاء القصير في مذكراتي وأعرف أنني قد فعلت ذلك من قبيل الغرور والخجل معاً. وعليّ أن أعوض عن ذلك.

ففي إحدى العطل، وبينما أنا أتمشى عبر بلدتنا مرهقاً، من أيام البارات المرهقة، متطلعاً إلى وجوه العجائز المحافظين العتيقة المحتقرة ذاتها، رأيت صديقي السابق يمشي باتجاهي. وما كدت ألمحه حتى أجفلت. وفي اللحظة ذاتها لم أستطع منع نفسي من التفكير بفرانز كرومر. آه لو أن دميان قد نسي، فعلاً، تلك الحادثة. لقد كان من

(*) من هنا يتضح دميان. أن الاسم قريب، في لفظه، من دايمون أو ديمون. وهي كلمة تحمل معاني عديدة متقاربة. ففي المورد: 1 - الروح الحارسة. 2 - شيطان، عفريت. 3 - نصف إله في الميثولوجيا اليونانية. 4 - شخص ذو قوة أو براعة عظيمة.

المزعج جداً أن أكون مديناً له بمنّة. صحيح أنها قصة أولاد سخيفة ولكنها تظل منّة.

بدا أنه ينتظر: هل سأُحييه؟ وحين فعلت ذلك بشكل عادي وطبيعي مد لي يده. نعمْ. هذه هي قبضته، متينة ودافئة وفيها شيء من البرودة مع القوة مثلما كانت دائماً.

تفحص وجهي ثم قال: «لقد كبرت يا سنكلير» بينما هو ظل كما كان، كبيراً، أو فتياً، كما كان.

رافقني وتمشينا، ولم نتحدث في أمور هامة. وتذكرت أنني كتبت له عدة مرات دون أن أتلقى رداً، وتمنيت أن يكون قد نسي ذلك أيضاً، فيا لها من رسائل سخيفة! ولم يأت على ذكرها.

لم أكن في ذلك الحين قد التقيت ببياتريس وبالتالي لم تكن هناك صورة. كنت ماأزال في معمعة السكر. وفي ظاهر البلدة طلبت منه أن يشاركني كأساً من الخمر فقبل. وفوراً قمت باستعراضية بطلب زجاجة كاملة، ثم ملأت له كأسه. وقرعت كأسي بكأسه وأظهرت له ألفتي القوية مع عادات شرب الطلبة بكرع الكأس الأولى في جرعة واحدة.

وسأل: إنك تقضي وقتاً طويلاً في البارات. أليس كذلك؟

فأجبته: نعم. وما الذي يمكن أن أفعله غير ذلك؟ في النهاية تبقى البارات مسلية أكثر من غيرها.

ـ أتظن ذلك؟ ربما كان الأمر كذلك. هناك جانب ظريف جداً فيها ـ النشوة وعنصر العربدة. ولكنني أظن أن معظم الذين يترددون على البارات قد فقدوا هذا العنصر تماماً. ويبدو لي أن الذهاب إلى البارات نوع من العادات المحافظة. نعم. لابأس بليلة مع المشاعل. سكرة مجنونة حقيقة! ولكن حين يتكرر الأمر مرة بعد أخرى، وكأساً بعد أخرى فإنني أشك في أن يكون هذا هو الأمر الحقيقي. هل تستطيع تصور فاوست منحنياً على البار ليلة بعد أخرى؟

أخذت جرعة ثم تطلعت إليه بعدائية. وقلت له باقتضاب: ليس كل إنسان فاوست.

تطلع إليّ وقد صدم قليلاً.

ثم ضحك لي بطريقته القديمة الحيوية والفوقية: «طيب. لاداعي لأن نتشاجر من أجل ذلك! على أية حال تظل حياة السكير، فرضياً، أكثر حيوية من حياة المواطن العادي حسن التصرف. ولقد قرأت في مكان ما أن حياة الباحث عن المتعة هي الإعداد الأول للتحول إلى الصوفية. وأناس مثل القديس أوغسطين هم الذين يصبحون أصحاب رؤى. فهو أيضاً كان في البداية منغمساً في الملذات وصاحب تجارب كبيرة».

شككت فيه ولم أكن راغباً في جعله يتفوق مهما كانت الظروف. ولذا قلت له بتعالٍ: «لكل إنسان ذوقه. بالنسبة لي ليس لديّ أي طموح لأن أصير صاحب رؤى أو شيئاً من هذا القبيل».

تطلع إليّ دميان تطليعة قصيرة قاسية بعينيه نصف المغمضتين. وقال بهدوء وتمهل: «يا عزيزي سنكلير، لم أكن أقصد أن أقول لك أي شيء مزعج. وإضافة إلى ذلك، ما من أحد بيننا يعرف لماذا صادف أنك تشرب الخمرة في هذه اللحظة. لكن الذي، في أعماقك، يسيّر حياتك هو الذي يعرف. وجميل أن ندرك أن في أعماقنا شخصاً ما يعرف كل شيء ويرغب في كل شيء ويفعل كل شيء أفضل منا نحن. ولكن اعذرني، يجب أن أعود إلى البيت».

تبادلنا تحية وداع مختصرة. وظللت متنكداً لأنهي الزجاجة. وحين أردت أن أغادر اكتشفت أن دميان قد دفع الحساب، مما جعل مزاجي يزداد سوءاً.

عادت بي أفكاري إلى هذا الحادث الصغير مع دميان. لم أستطع أن أنساه، والكلمات التي قالها لي في ذلك البار عند طرف المدينة تعود إلى البال متجددة وطازجة: «جميل أن ندرك أن في أعماقنا شخصاً ما يعرف كل شيء».

كم اشتقت إلى دميان. لم أكن أعرف أين هو ولا كيف أصل إليه. كل ما كنت أعرفه هو أنه ربما كان يدرس في جامعة ما وإن أمه قد غادرت البلدة، بعد أن أتم المرحلة الاعدادية.

حاولت أن أتذكر ما أستطيعه عن ماكس دميان عائداً بذاكرتي حتى إلى حادثة كرومر. كم عاد إلى ذاكرتي من الكلام الذي قاله لي

خلال تلك السنوات، وكله ذو معنى وفائدة اليوم وكله مناسب ومثير لاهتمامي. وما قاله في لقائنا الأخير الهادئ وغير المريح عن الحياة المهدورة التي تقود إلى القدسية عاد هو الآخر إليّ بوضوح، ألم يكن هذا ما حدث ليّ بالضبط؟ ألم أعش في السكر والفساد، هائماً وضائعاً، إلى أن عاش في داخلي العكس وبحماس جديد نحو الحياة، وبتوق نحو الطهارة وتعلق بالقدسي؟

وهكذا رحت أتابع هذه الذكريات. كان الليل قد حل منذ فترة طويلة وبدأ المطر يهطل. وفي ذاكرتي، أيضاً، كنت أسمع المطر: كانت الذكرى عن الساعة التي قضيناها تحت أشجار الكستناء ودميان يحقق معي عن فرانز كرومر، ويحدس بأول أسراري. وراحت حادثة وراء الأخرى تعود إلى ذاكرتي، الأحاديث في الطريق إلى المدرسة، دروس الدين، وفي النهاية لقائي الأول به، ما الذي تحدثنا عنه؟ لم أستطع تذكر ذلك بسرعة لكنني تمهلت ورحت أحصر ذاكرتي بشدة. وحتى صارت تبدو وكأنها تزداد شبهاً بالشعار متعدد الألوان الذي جاءني في الحلم.

لم أكن لأستطيع الكتابة لدميان حتى لو عرفت عنوانه. لكنني قررت - وفي الحالة ذاتها من الشعور السبقي الحالم التي كنت أفعل فيها كل شيء - أن أرسل له صورة الباشق حتى لو كانت لن تصل إليه أبداً. ولم أرفق بها رسالة ولا حتى اسمي. زينت حوافها بعناية ثم كتبت العنوان السابق لصديقي عليها. ثم أرسلتها بالبريد.

كان امتحاني يقترب وعليّ أن أزيد جهودي، وكان المعلمون قد أعادوني إلى رعايتهم منذ أن غيرت، بشكل مفاجئ، نهج حياتي الخسيس السابق، ولم يكن هذا يعني أنني قد صرت تلميذاً مبرزاً ولكن لا أنا ولا أي شخص آخر يمكن أن يخطر له أن طردي قبل نصف عام كان مسألة مؤكدة.

وعادت إلى رسائل والدي لهجتها السابقة دون تودد أو تهديد. إلا أنني لم أحس بما يُلزمني لأن أشرح له أو لغيره كيف حدث التحول في داخلي. وإنها لمصادفة أن يتجاوب هذا التحول مع رغبات والدي وأساتذتي. ولم يُدخلني هذا التغيير في تجمعات الآخرين، ولم يقربني

من أحد، بل إنه قد جعلني، عملياً، أكثر وحدانية. وكان صلاحي يبدو متوجهاً نحو دميان ولكن حتى هذا كان يبدو بعيد المنال... لم أكن أعرف نفسي لأنني كنت منهمكاً جداً. وغارقاً في الأمر. لقد بدأ كل شيء بيياتريس. ولكن مر وقت لابأس به وأنا أعيش في عالم غير واقعي في لوحاتي وأفكاري حول دميان حتى نسيت كل ما يتعلق بها أيضاً. ولم أكن قادراً على التلفظ بكلمة واحدة عن أحلامي وتوقعاتي، وعن تحولي الداخلي، لأي إنسان حتى لو أردت ذلك، ولكن كيف كان لي أن أريد ذلك؟

5

«الطائر يكافح للخروج من البيضة»

كان طائر أحلامي المرسوم يبحث في طريقه عن صديقي. وفي ما بدا أغرب طريقة يمكن تصورها وصلني رد.

في الصيف، على مقعدي، وبعد استراحة بين درسين وجدت رسالة مثبتة داخل كتابي. كانت مطوية بالطريقة ذاتها التي تطوى بها رسائل زملاء الصف والتي تمرر سراً من واحد إلى آخر أثناء سير الدرس. ولقد أدهشني أن أتلقى رسالة كهذه فأنا لم أقم صلة من هذا النوع مع أي من التلاميذ. وخطر لي أنها ستكون دعوة لمزحة لن أشارك فيها حتماً ـ وضعت الرسالة دون قراءة أمام كتابي. ولم أعد إليها إلا أثناء سير الدرس.

وأنا ألعب بها فتحتها فلمحت عدة كلمات مكتوبة. وكانت نظرة واحدة تكفي. كلمة واحدة أرعبتني. وبذعر رحت أقرأ والخوف يملأ قلبي: «الطائر يكافح للخروج من البيضة. البيضة هي العالم. والذي يريد أن يولد عليه أولاً أن يدمر عالماً. الطائر يطير إلى الله. واسم هذا الإله هو أبراكساس»(*).

(*) كلمة مركبة من سبعة أحرف يونانية كانت تنقش على التعاويذ والتمائم والحلي للاعتقاد بمواصفاتها السحرية وفي القرن الثاني الميلادي جسده الغنوسطيون ـ الموسوعة.

بعد قراءة هذه الأسطر عدة مرات غرقت في حلم اليقظة. لم يكن هناك أدنى شك. هذا جواب دميان. وما من أحد غيره يعرف شيئاً عن رسمي. لقد التقط معناه، وكان يساعدني على تفسيره. ولكن كيف انسجم هذا كله معاً؟ و ـ ما ضغط عليّ أكثر من غيره ـ ما الذي يدل عليه أبراكساس؟ لم يسبق لي أن سمعت أو قرأت هذه الكلمة. «اسم هذا الإله أبراكساس».

استمر الدرس دون أن أستفيد منه كلمة. وبدأ الدرس التالي، آخر درس في فترة الصباح. وكان يدرسنا إياه مساعد شاب اسمه الدكتور فولينز، الذي أنهى مؤخراً دراسته الجامعية. وكنا نحبه لأنه شاب ولأنه متواضع وبسيط.

كان الدكتور فولينز يشرح لنا هيرودوتس ـ وهذا أحد الموضوعات القليلة التي كانت تثير فيّ أي أهتمام. ولكن لم يكن حتى هيرودوتس قادراً اليوم على إثارة اهتمامي. فتحت الكتاب بآلية ولكنني لم أتابع الترجمة فظللت غارقاً في أفكاري، وإضافة إلى ذلك كنت قد تأكدت أكثر من مرة مما قاله لي دميان ذات يوم أثناء درس الدين: تستطيع أن تحقق أي شيء ترغب فيه بقوة. فإذا صادف أن كنت غارقاً في أفكاري أثناء سير الدرس فإنني لم أكن لأقلق من إمكانية أن يستدعيني المعلم. أما حين أكون ذاهلاً أو قلقاً فإنه سرعان ما يظهر إلى جانبي، لقد حدث هذا معي سابقاً، ولكن إذا ركزت جدياً، وانغمست كلياً في أفكاري الخاصة بي، فإنني أكون محمياً. كما أنني قد جربت لعبة التحديق إلى شخص وكسر نظره وتبين لي أنها مجدية. حين كنت ما أزال مع دميان لم أكن أنجح فيها؛ أما الآن فأشعر أنه يمكن تحقيق الكثير من خلال نظرة حادة وفكرة.

في الوقت الحاضر لم أكن على مقربة من هيرودوتس، أو من المدرسة وبغتة انطلق صوت المعلم كالبرق في وعيي فأفقت مذعوراً. سمعت صوته، وكان يقف على مقربة مني. بل إنني ظننت أنه قد لفظ اسمي. لكنه لم يكن ينظر إليّ فاسترخيت. ثم سمعت صوته مجدداً، وبصوت عالٍ لفظ كلمة «أبراكساس».

وضمن سياق شرح مطول، لم ألتقط بدايته، كان الدكتور فولينز يتابع كلامه: «وليس علينا أن نعتبر آراء هذه المذاهب أو الجماعات

الصوفية ساذجة وسطحية كما تبدو ومن وجهة النظر العقلانية. فالعلم كما نعرفه نحن اليوم لم يكن معروفاً لدى القدماء. وبدلاً منه كان هناك انشغال بالحقائق الفلسفية والصوفية والتي كانت متطورة جداً. وما نجم عن هذا الانشغال كان، إلى حد ما، مجرد سحر وعبث مبتذلين؛ وربما أنه كان يؤدي، غالباً، إلى الاحتيال والجرائم، ولكن هذا السحر، أيضاً، كانت له جذوره في الفلسفة العميقة، كما هو الحال مثلاً، في التعاليم المتعلقة بأبراكساس التي ذكرتها قبل لحظة. يتردد هذا الاسم في العبارات السحرية اليونانية وغالباً ما يعتبر اسم أحد معاوني الساحر الذي تؤمن به بعض القبائل غير المتحضرة حتى في أيامنا هذه. ولكن يبدو أن لأبراكساس أهمية أكبر بكثير. ويمكننا تصور الاسم على أنه اسم رب مهمته الرمزية توحيد العناصر الإلهية والشيطانية معاً».

كان الرجل الصغير المتعلم يتحدث بتفهم وحرارة لكن لم يكن أحد يعيره انتباهاً ولكن بما أن اسم أبراكساس لم يعد يتكرر فقد عاد تفكيري إلى شؤوني الخاصة.

تردد صدى تعبير «توحيد العناصر الإلهية والشيطانية» في أعماقي. ها هنا شيء يمكن أن تتعلق به أفكاري. لقد سبق لي أن تعرفت إلى هذه الفكرة في محادثاتي مع دميان. وخلال المرحلة الأخيرة من صداقتنا كان قد قال إننا أعطينا إلهاً لنعبده وهو لايمثل إلا نصفاً، معزولاً بشكل قسري، من العالم (إنه العالم الرسمي المصدَّق المنوَّر) وإن علينا أن نتمكن من عبادة العالم كله. وهذا إما أن يعني الحصول على إله هو في الوقت ذاته شيطان أو تأسيس مذهب للشيطان إلى جانب مذهب الله. والآن أبراكساس هو الإله الذي يمثل الله والشيطان معاً.

ظللت فترة طويلة أتابع هذه الفكرة بحماس ولكن دون تحقيق أي تقدم بل إنني استغرقت في قراءة كمية هائلة من الكتب بحثاً عن ذكر لأبراكساس. إلا أن طبيعتي لم تكن لتنسجم مع هذا النوع من التقصي الواعي والمباشر الذي لايجد المرء في بدايته إلا الحقائق التي تصبح راسخة في يده.

وشكل بياتريس الذي شغلت نفسي به باستغراق وحماس راح، تدريجياً، يغيب أو بالأحرى راح يتراجع ببطء، ويزداد قرباً من الأفق ويصبح أكثر شحوباً وبعداً وإبهاماً. لم تعد ترضي تطلعات روحي.

في العزلة الغريبة التي أقمتها لنفسي والتي كنت فيها مثل من يسير في نومه بدأ نمو جديد يتشكل في أعماقي. نما التوق إلى الحياة - أو بالأحرى التوق إلى الحب - صارت رغبتي الجنسية، التي صعّدتها لفترة من خلال تقديري واحترامي لبياتريس، تطالب بصورة وموضوعات جديدة، لكن رغباتي ظلت غير متحققة. وكان من المستحيل عليّ أكثر من أي وقت مضى أن أخدع تطلعاتي وأن آمل بشيء من النساء اللواتي كان زملائي يجربون حظوظهم معهن. وعدت إلى الأحلام الكثيرة ومعظمها كان في النهار أكثر مما كان في الليل. تصورات وصور ورغبات راحت تبرز في أعماقي بحرية وتسحبني من العالم الخارجي بحيث صارت علاقتي بالعالم الذي أصنعه، من هذه الصور والأحلام والخيالات، أقوى وأكثر صميمية من علاقتي بالعالم الواقعي المحيط بي.

حلم محدد، أو تخيل، ظل يتكرر. وهو الذي كنت أرى فيه معنى. والحلم، الأكثر أهمية وتميزاً على المدى البعيد، كان كما يلي: أكون عائداً إلى بيت أبي - وفوق المدخل يتلامع الطائر الانذاري، بلون أصفر على خلفية زرقاء. داخل البيت أمي تتوجه نحوي. ولكن ما أن أدخل وأتوجه لمعانقتها حتى تتغير. تصبح شكلاً لم تقع عيناي عليه من قبل، طويلاً وقوياً وشبيهاً بماكس دميان وبالصورة التي رسمتها؛ لكنها مختلفة لأنها على الرغم من قوتها فإن فيها مسحة أنثوية. هذا الشكل يعيدني إلى نفسي، ويغرقني في عناق قوي وراعش. كنت أحس بمزيج من النشوة والرعب، فالعناق كان مزيجاً من العبادة القدسية والجريمة في الوقت ذاته. وأشياء كثيرة مقترنة بأمي وبصديقي كانت تتشابك مع هذا الشكل الذي يعانقني. وكان عناقه ينتهك كل حدود الاحترام لكنه كان نعمة. وكنت أستيقظ من هذا الحلم أحياناً وأنا مليء بالنشوة العميقة. أما في أحلام أخرى فكنت أمتلئ بالخوف المميت وبالضمير المعذب، وكأنني قد ارتكبت جريمة شنيعة.

ربما كنت سأصير شيئاً مشابهاً ولكن كيف لي أن أعرف؟ وربما كان عليّ أن أتابع بحثي سنوات أخرى دون أن أصبح شيئاً ودون أن أصل إلى هدف. وربما كنت سأصل إلى هذا الهدف لكنه سيتكشف عن هدف شرير وخطر ورهيب.

لم أكن أريد إلا أن أعيش وفق الدوافع التي تنبع من نفسي الحقيقية، فلم كان ذلك بهذه الصعوبة؟

قمت بمحاولات عديدة لرسم ظهور الحب القوي في أحلامي. ولم أوفق. ولو أنني نجحت في ذلك لأرسلت الرسم إلى دميان. ولم تكن لديّ فكرة عن مكانه. كنت أعرف فقط أننا مرتبطان ومتواصلان. فمتى سنلتقي من جديد؟

منذ زمن طويل انتهت الأسابيع والشهور الهادئة المتعلقة ببياتريس وفي هذه الأثناء شعرت أنني وقد وصلت إلى مرفأ آمن، إلى جزيرة السلام. ولكن، كما هو الحال دائماً، ما أن أتعود على ظروفي وما أن يبدأ الحلم بمنحي الأمل حتى يذوي ويذبل ويصبح بلا فائدة. وكان من العبث أن آسف بعد الخسارة. كنت أعيش الآن وسط نار التوق غير المتحقق وغير المشبع، نار التوقع المتوتر التي كثيراً ما كانت تجعلني متشنجاً وهائجاً. وكثيراً ما كنت أرى الشبح المحبب لأحلامي بوضوح أكبر من وضوح الحياة ذاتها وأكثر تميزاً من يدي. وكنت أكلمه وأبكي أمامه وألعنه. كنت أناديه أمي وأركع أمامه والدموع تنهمر مني. كنت أناديه حبيبتي وأنا متهيء لقبلته الناضجة الكاملة الإنجاز. كنت أناديه الشيطان والعاهرة ومصاص الدماء والقاتل. كان يدفعني إلى ألطف أحلام الحب وإلى الوقاحة المدمرة. لم يكن هناك ما هو خيّر وثمين أو ما هو شرير ومنحط بالنسبة له.

مررت بذلك الشتاء كله في دوامة داخلية لامتناهية يصعب عليّ وصفها. وكنت، منذ زمن، قد تعودت على وحدتي - لم يعد هذا يضايقني؛ كنت أعيش مع دميان، مع الباشق، ومع الشبح الطاغي في قدرته والنابع من أحلامي، والذي كان قدري وحبي. وكان هذا كافياً لتماسكي لأن كل شيء كان موجهاً نحو الاتساع والفراغ - نحو أبراكساس. ولكن ما من حلم بين هذه الأحلام، وما من فكرة كانت

تطيعني، ما من شيء كان طوع بناني ولم أكن لأستطيع تلوين أي منها كما أشاء. لقد أتت هذه الأشياء كلها وأخذتني. صرت محكوماً من قبلها، وصرت مركبتها.

غير أني كنت مسلحاً بشكل جيد ضد العالم الخارجي. لم أعد خائفاً من الناس وحتى زملائي التلاميذ صاروا يعرفون ذلك ويعاملونني باحترام خفي كثيراً ما كان يبعث البسمة على شفتي. ولو أردت لاستطعت رؤية داخل الكثيرين منهم ولأربكتهم أكثر من مرة. لكنني نادراً ما كنت أحاول ذلك أو أنني لم أحاول ذلك أبداً، كنت، دائماً، منشغلاً بنفسي. وكنت أشتاق شوقاً حقيقياً لأن أعيش بشكل حقيقي ولو مرة واحدة، أن أعطي شيئاً من نفسي للعالم، أن أدخل في علاقة ومعركة معه. أحياناً وأنا أركض في الشوارع مساء غير قادر على العودة، قبل منتصف الليل بسبب قلقي الدائم، كنت أحس أنني، الآن، في هذه اللحظة سيكون عليّ أن أقابل حبيبتي ـ وكأنها تسير لتجتازني عند منعطف الشارع القادم، أو تناديني من أقرب النوافذ وأحياناً أخرى كان هذا كله يبدو مؤلماً بشكل لايحتمل فأصبح مستعداً للانتحار.

في ذلك الحين وجدت ملجأ غريباً ـ «بالمصادفة» كما يقولون ـ على الرغم من إيماني بعدم وجود أشياء كهذه. حين تحتاج إلى شيء ما حاجة ماسة ثم تجده فهذه ليست مصادفة. إن رغبتك الملحة واندفاعك الحار هما اللذان يقودانك إليه.

مرتين أو ثلاث مرات أثناء سيري كنت أسمع موسيقى الأرغن تأتي من كنيسة صغيرة في طرف البلدة. ولم أكن أتوقف لأستمع. وفي المرة اللاحقة التي مررت بها بهذه الكنيسة سمعت الموسيقى ثانية وعرفت أنها لباخ. ذهبت إلى الباب فوجدته مقفلاً. ولأن الشارع كان خالياً دائماً جلست على حجر قريب من الكنيسة ورددت ياقتي ورحت أستمع. لم يكن أرغناً كبيراً لكن نغمته جيدة. وكان في العزف تعبير شخصي جداً وغريب عن الغرض والتركيز مما أعطاه مسحة الصلاة وشعرت أن عازف الأرغن كان يعرف الكنوز المخبأة في الموسيقى وأنه كان يتوسل ويدق بعنف على الباب راجياً ويصارع من أجل هذا

الكنز وكأنه حياته. معلوماتي عن الموسيقى من الناحية التقنيةمحدودة جداً ولكن منذ أيام الطفولة كان لديّ تقبل بالحدس، وكنت أحس بالموسيقى وكأنها شيء بدهي في أعماقي.

وعزف العازف شيئاً أكثر حداثة ـ ربما كان لماكس ريغير. كانت الكنيسة غارقة في الظلام وليس فيها إلا شعاع دقيق من الضوء ينبعث من النافذة القريبة إليّ. انتظرت إلى أن توقفت الموسيقى وبعدها رحت أتمشى جيئة وذهاباً إلى أن رأيت العازف يغادر الكنيسة. كان مايزال شاباً، لكنه أكبر مني، بكتفين مربعتين وجسم قصير. وابتعد مسرعاً بخطوات قوية لكنها على ما يبدو متوترة.

منذ ذلك اليوم صرت أتردد على المكان وأجلس خارج الكنيسة أو أتمشى أمامها خلال ساعات المساء. بل إنني ذات يوم وجدت الباب مفتوحاً فجلست قرابة نصف ساعة على أحد المقاعد، وأنا أرتعش من البرد، لكنني كنت سعيداً طالما أن العازف يعزف في العلية. لم أتعرف، فقط، على شخصيته من خلال الموسيقى التي كان يعزفها ـ كل مقطوعة كان يعزفها لها صلة، أو علاقة سرية، بالتي تليها، بل إن كل ما كان يعزفه كان مليئاً بالإيمان والتسليم والتفاني، إلا أنه لم يكن مؤمناً بطريقة رواد الكنائس والقسس، بل كان مؤمناً بطريقة الحجاج والمتسولين الجوالين في العصور الوسطى، بذلك الاستسلام غير المشروط للشعور الشامل الذي يتخطى كل اعتراف. كما أنه كان يعزف الموسيقى التي تعود إلى ما قبل باخ والإيطاليين القدامى. وهذه الموسيقى كلها كانت تقول شيئاً واحداً. كلها كانت تعبر عما في روح الموسيقي: التوق والانصهار الكلي في العالم، والمجاهدة للتحرر، الإصغاء المتحرق لروح المرء المعتمة، والاستسلام النشوان والفضول العميق نحو الإعجاز.

وذات مرة، وأنا أتعقب العازف بعد مغادرته للكنيسة، رأيته يدخل خمارة في طرف البلدة. ولم أستطع مقاومة الرغبة في الدخول وراءه، للمرة الأولى استطعت أن أراه بوضوح. جلس على طاولة منعزلة في الزاوية البعيدة من الحجرة الصغيرة وكان يرتدي قبعة سوداء من اللباد. وأمامه ابريق من الخمر. وجهه مثل ما توقعته كان بشعاً وفيه

غلظة، فضولياً وعنيداً. نزوياً ومصمماً، لكن لفمه سمة طفولية ناعمة. رجولته كلها وقوته كلها كانتا متمركزتين في عينيه وجبهته بينما كان الجزء الأسفل من الوجه حساساً وفتياً ومنفلشاً وناعماً بعض الشيء. وكانت الذقن المتحيزةً الوَلَدية تبدو متناقضة مع الجبهة والعينين ـ وهذا ما أحببته. عيناه الرماديتان القاتمتان المليئتان بالكبرياء والعداء.

جلست قبالته دون كلام. كنا الزبونين الوحيدين في الخمارة. ألقى عليّ نظرة وكأنه يريد أن يطردني. لكنني لم أتزحزح. حدقت إليه بثبات إلى أن غمغم متنكداً: ما الذي تحدق إليه؟ هل هناك ما تريده؟.

ـ لا أريد منك شيئاً. لقد أعطيتني الكثير حتى الآن.

وعقد حاجبيه: أنت، إذن، هاو للموسيقى؟! أرى من المقرف أن تكون مولعاً بالموسيقى.

ولم أترك له الفرصة لكي يخيفني.

ـ استمعت إليك كثيراً. هناك في الكنيسة، لكنني لا أريد أن أزعجك. خطر لي أنني قد أجد شيئاً ما، شيئاً خاصاً. لا أعرف ما هو في الحقيقة. ولكن لاتلق بالاً إليّ. أستطيع أن أستمع إليك في الكنيسة.

ـ لكنني أقفلها دائماً.

ـ منذ فترة ليست بالبعيدة نسيتها مفتوحة فدخلت وجلست، في العادة كنت أقف بالخارج أو أجلس على حجر.

ـ صحيح! في المرة القادمة تستطيع أن تدخل. في الداخل الجو أكثر دفئاً. كل ما عليك أن تفعله هو أن تقرع الباب. ولكن عليك أن تدق بقوة. وليس وأنا أعزف. هات الآن ـ ما الذي كنت تريد أن تقوله لي؟ إنك ما تزال شاباً وربما تلميذاً. هل أنت موسيقي؟

ـ لا. أنا أحب الاستماع إلى الموسيقى، ولكن فقط ذلك النوع الذي تعزفه، الموسيقى المتحررة تماماً، النوع الذي يجعلك تحس أن إنساناً يهز السماء والجحيم. أعتقد أنني أحب هذا النوع من الموسيقى لأنه لا أخلاقي. كل ما عداه أخلاقي وأنا أبحث عما ليس كذلك. الأخلاق تبدو

لي دائماً غير محتملة. لا أستطيع التعبير عن الأمر بوضوح ـ هل تعرف أنه يجب أن يوجد إله هو في الوقت ذاته إله وشيطان معاً؟ من المفترض أن واحداً كهذا كان موجوداً ذات مرة. لقد سمعت عنه.

دفع الموسيقي قبعته العريضة إلى الوراء قليلاً ورفرف بجفنيه وهو يتطلع إليّ. ثم أحنى وجهه على الطاولة.

وبهدوء وتوقع سألني: ما اسم الإله الذي ذكرته؟

ـ للأسف أنا لاأعرف أي شيء آخر عنه، عملياً لا أعرف إلا اسمه، إنه يدعى أبراكساس.

تلفت الموسيقي حوله بحذر وكأن شخصاً ما قد يسترق السمع. ثم اقترب مني وقال هامساً: هذا ما ظننته. من أنت؟

ـ تلميذ في المدرسة الثانوية.

ـ وما الذي يمكن أن تكون قد سمعته عن أبراكساس؟

ـ بالمصادفة.

ضرب الطاولة بعنف جعل الخمر ينسكب من كأسه: بالمصادفة! لاتتحدث بهذا الهراء يا فتى! الإنسان لايسمع بأبراكساس بالمصادفة. ولاتنسَ ذلك. أنا سأخبرك بالمزيد عنه. إن لدي بعض المعلومات.

وصمت وهو يعيد كرسيه إلى الوراء. وحين تطلعت إليه منتظراً أعطى إشارة بوجهه: ليس هنا، في وقت آخر. هاك. خذ هذه. ومد يده إلى سترته التي لم يكن قد خلعها وأخرج بعض حبات الكستناء المشوية وألقاها إليّ.

لم أقل شيئاً. أخذتها وأكلتها وشعرت بالراحة.

ـ طيب. همس لي بعد دقيقة. أين اكتشفته؟

ولم أتردد في إخباره. بدأت: ذات مرة كنت وحيداً ويائساً. ثم تذكرت صديقاً كنت أعرفه قبل عدة سنوات وأشعر أنه يعرف أكثر مني بكثير. وكنت قد رسمت شيئاً ما، طائراً يكافح للخروج من الكون. أرسلت إليه هذه اللوحة. وبعد فترة وجدت ورقة مكتوب عليها هذا

الكلام: الطائر يكافح للخروج من البيضة. البيضة هي العالم. والذي يولد عليه أولاً أن يدمر عالماً. الطائر يطير إلى الله. واسم هذا الإله أبراكساس.

لم يجب. رحنا نقشر الكستناء ونشرب خمرتنا.

ـ كأساً أخرى؟ سألني.

ـ لا، شكراً، لا أحب الشرب.

ضحك مخيباً قليلاً: كما تحب، الأمر مختلف بالنسبة لي. أنا سأبقى وتستطيع أن تنصرف إذا شئت.

عندما انضممت إليه في المرة التالية، بعد أن كان قد عزف على الأرغن، كان متحفظاً قليلاً. قادني إلى حارة، ثم دخلنا بيتاً عتيقاً وموحياً ثم صعدنا إلى غرفة كبيرة معتمة قليلاً. وباستثناء البيانو لم يكن فيها شيء آخر يوحي بكونه موسيقياً ـ لكن حقيبة كتب كبيرة ومقعداً كانا يعطيان الغرفة جواً شبيهاً بجو الطلبة.

هتفت مندهشاً: ما أكثر الكتب لديك!

ـ قسم منها من مكتبة والدي ـ الذي أعيش في بيته، نعم أيها الشاب. أنا أعيش مع والديّ لكنني لا أستطيع أن أعرّفك بهما، زملائي لايُعتبرون مرغوبين جداً في هذا البيت. أنا الخروف الأسود(*). والدي محترم جداً وهو قس معتبر وواعظ في هذه البلدة. وأنا، لكي تعرف كل شيء دفعة واحدة، ابنه الموهوب والواعد والذي ضل، وإلى حد ما، جن. كنت طالب لاهوت ولكن قبل الامتحانات الرسمية بقليل تركت هذه الكلية المحترمة: أعني، ليس كلياً، ليس في ما يتعلق بدراساتي الخاصة لأنني ماأزال مهتماً بمعرفة الآلهة التي ابتكرها البشر لأنفسهم. ومن ناحية أخرى أنا موسيقي في الوقت الحالي. ويبدو أنني سأحصل على عمل كعازف أرغن في مكان ما. وبعدها سأعود إلى خدمة الكنيسة مرة أخرى.

بمقدار ما كان الضوء الضعيف الصادر عن مصباح الطاولة

(*) الشخص المنبوذ في أسرة محترمة.

الصغير يسمح رحت أتطلع إلى أغلفة الكتب فأرى فيها العناوين اليونانية واللاتينية والعبرية. وفي الوقت ذاته كان رفيقي قد استلقى على الأرض يشغل نفسه بشيء ما.

بعد قليل ناداني: «تعال. سنتمرن على شيء من الفلسفة. يعني: أبق فمك مغلقاً. استلق على بطنك وتأمل».

أشعل عود ثقاب ثم أشعل ورقة وخشبة في الموقد الذي كان يتمدد أمامه. تصاعدت ألسنة اللهب وهو يحرك النار ويغذيها بحرص بالغ. استلقيت إلى جانبه على السجادة البالية. وخلال ساعة ظللنا مستلقين على بطنينا صامتين أمام الخشب المتوهج ونحن نراقب اللهب يندفع ويضطرم ثم يخفت ويرتد ويرتعش وينتفض ثم يستكين في النهاية ويتحول إلى جمر خامد.

«لم تكن عبادة النار أسخف ما تم اختراعه» قال ذلك متمتماً في إحدى المراحل. وبعدها لم ينبس أي منا بكلمة. كنت أحدق في اللهب باستغراق، وأستسلم للأحلام والسكون وأتعرف على أشكال في الدخان وعلى صور في الرماد. مرة خفت. ألقى رفيقي بقطعة من الراتنج على الجمر، فاندفع لهب ضعيف، رأيت فيه الطائر ذا الرأس الباشقي الأصفر. ومن الجمر الخافت راحت خطوط حمراء وذهبية تتقاطع كالشبكة. وظهرت بينها حروف أبجدية، وذكريات وجوه، وحيوانات ونباتات وديدان وأفاع. وحين استفقت من حلم يقظتي تطلعت إلى رفيقي، وذقنه مستندة على قبضتيه، وهو يحدق مأخوذاً في الرماد باستسلام تام.

قلت بصوت خافت: عليّ أن أذهب الآن.

- هيا. مع السلامة.

لم ينهض. كان المصباح قد انطفأ. وتلمست طريقي عبر الغرف المظلمة والممرات في ذلك البيت العتيق السحري. وما أن صرت في الخارج حتى توقفت وتطلعت إلى واجهة المنزل. نوافذه، كلها، معتمة، وكانت لوحة نحاسية صغيرة على الباب الأمامي تلمع في الضوء القادم إليها من مصباح الشارع. وعليها قرأت: «بستوريوس، القس بريماريوس».

بعد وصولي إلى البيت، وجلوسي في الغرفة الصغيرة بعد العشاء خطر لي أنني لم أسمع شيئاً عن أبراكساس أو بستوريوس - لم نتبادل إلا القليل من الكلمات لكن الزيارة كانت مُرضية لي. وقد وعد أنه في لقائنا التالي سيعزف مقطوعة مختارة من الموسيقى القديمة، باساكاغاليا(*) على الأرغن لبكستيهود.

وقبل أن أعي الأمر جيداً كان عازف الأرغن بستوريوس قد أعطاني الدرس الأول عندما كنا مستلقيين على الأرض أمام النار في غرفته المنعزلة القابضة للنفس. لقد كان التحديق في اللهب أساساً بالنسبة لي لاستكناه التوجهات التي كانت لديّ ولم يسبق لها أن روعيت. بالتدريج صار بعضها قابلاً للفهم بالنسبة لي.

وحتى حين كنت ولداً صغيراً كانت لديّ عادة التحديق في الظواهر الطبيعية الغريبة، ليس بهدف مراقبتها بل للاستسلام أمام سحرها وأمام لغتها المشوشة العميقة. جذور الأشجار الطويلة المعقدة، العروق الملونة في الصخور، بقع الزيت الطافية على الماء، الخطوط التي يتكسر الضوء عليها في الزجاج - هذه الأشياء كلها كان لديها بالنسبة لي سحر عظيم ذات يوم: الماء والنار بشكل خاص، الدخان والغيوم والغبار، ولكن أكثرها جميعاً الذرات الملونة الهائمة التي تسبح أمام عيني حين أغلقهما. بدأت أتذكر هذا كله في الأيام التالية لزيارتي لبستوريوس وذلك لأنني لاحظت أن قوة ومتعة خاصتين، وتكثيفاً في وعيي لنفسي قد استحوذت عليها منذ تلك الأمسية. وأنا مدين بها لهذا التحديق الطويل في النار. لقد كان الأمر مريحاً ومفيداً.

وأضفت إلى التجارب التي ساعدتني في الطريق نحو هدف حياتي الحقيقي هذه التجربة الجديدة: مراقبة هذه الجزئيات. إن الاستسلام للتشكيلات اللامنطقية والغريبة بتشوشاتها التي تقدمها الطبيعة يولد فينا شعوراً من التناغم الداخلي مع القوة المسؤولة عن هذه الظواهر. إننا سرعان ما نسقط ضحايا إغراء التفكير فيها وكأنها من طبيعتنا

(*) لحن إيطالي أو إسباني راقص قديم.

نحن، من خلقنا نحن، فنرى الحدود التي تفصلنا عن الطبيعة وهي ترتعش وتتلاشى. نصبح متآلفين مع هذه الحالة العقلية التي نعجز فيها عن حسم ما إذا كانت الصور في شبكة العين هي نتيجة انطباعات آتية من الخارج أم من الداخل. ليس هناك مكان مثل هذا نستطيع فيه أن نكتشف، بسهولة وببساطة، إلى أي حد نحن خلاقون وإلى أي حد تساهم أرواحنا في عملية الخلق المستمر للعالم. لأن الألوهية المتوحدة ذاتها فعالة فينا وفي الطبيعة، وإذا كان العالم الخارجي سيُدمَّر فإن شخصاً واحداً منا سيكون قادراً على إعادة بنائه؛ بالجبل والجدول، بالشجرة والورقة، بالجذر والزهرة. كل شكل طبيعي كامن فينا ولانستطيع معرفة جوهره؛ لكنه في أغلب الأحيان يعرفنا بنفسه على أنه القدرة على الحب والخلق.

استغرق الأمر سنوات عديدة لكي أتثبت من هذه الملاحظات في كتاب عن ليوناردو دافنشي، الذي يصف لنا إلى أي مدى هو مفيد، ومثير للاهتمام الجاد أن نتطلع إلى جدار بصق عليه أناس كثيرون. فعند مواجهته لكل لطخة على الجدار المبلل لابد أنه قد أحس بما أحسست به مع بستوريوس أمام النار.

في لقائنا الثاني قدم لي عازف الأرغن تفسيراً: «إننا، دائماً، نضيّق على أنفسنا عند تحديد شخصيتنا. بشكل عام نحن لانعتبر جزءاً من شخصيتنا إلا ما نستطيع أن نعتبره سمة فردية أو مختلفاً عن المألوف. لكن كلاً منا يشتمل على كل ما يشتمل عليه العالم، وتماماً مثلما أن جسدنا يحتوي على قائمة التطور النسبي (السلالي) التي كان يحتوي عليها جسم السمكة وحتى ما هو أبعد من ذلك؛ كذلك فإننا نحمل في روحنا كل ما كان حياً في نفوس البشر. كل إله وشيطان وجد، سواء عند اليونانيين أو الصينيين أو الزولو، موجود فينا، بإمكانية كامنة، كرغبة، كبديل. وإذا تعرض الجنس البشري للفناء عن وجه الأرض وظل طفل واحد متوسط الموهبة لم يتلق أية ثقافة فإن هذا الولد سوف يكون قادراً على إنتاج كل شيء مرة أخرى، من آلهة وشياطين وجنات ووصايا وعهد قديم وجديد».

ـ نعم. جميل، ولكن ما قيمة الفرد في هذه الحالة؟ لِمَ نستمر في الكفاح طالما أن كل شيء كامل فينا؟

ـ توقف! هتف بستوريوس. هناك فرق هائل بين حمل العالم في داخلنا وبين معرفة ذلك. يستطيع المجنون أن يقول أفكاراً تذكرك بأفلاطون، وتلميذ صغير تقي في معهد اللاهوت يستطيع أن يعيد النظر في التشابهات الميثولوجية الموجودة في الغنوسطيين أو الزارادشتيين. لكنه لايعرف ذلك، هو شجرة أو حجر، وفي أحسن أحواله هو حيوان، طالما أنه لايعي. ولكنه ما أن تنطلق شرارة الوعي الأولى في أعماقه حتى يصبح إنساناً. إنك لاتعتبر المشاة على قائمتين الذين تعبر بهم في الشارع بشراً لمجرد أنهم يمشون منتصبي القامة ويحملون أطفالهم تسعة أشهر في بطونهم! من الواضح كم بينهم من أسماك وأغنام وديدان وملائكة، وكم من نمل ونحل، إن كلاً منهم يحمل إمكانية التحول إلى إنسان، ولكن بالتعرف على هذه الإمكانيات، ونسبياً بتعليم نفسه كيف يعيها، وفي هذه الحالة فقط تكون الإمكانيات ملكه.

هكذا كان التوجه الأساسي لمحادثاتنا. وقلما جابهتني بشيء جديد أو بشيء مدهش. ولكن كل شيء، وحتى أكثر الأمور عادية، كان يشبه الضرب المستمر بمطرقة على النقطة ذاتها في داخلي. وهذه كلها قد ساعدتني على أن أصوغ نفسي. كلها ساعدتني على سلخ طبقات الجلد، على كسر قشرة البيضة. وبعد كل ضربة كنت أرفع رأسي إلى الأعلى قليلاً، وأصبح أكثر حرية بقليل، إلى أن دفع طائري الأصفر رأس الطير الجارح الجميل من وسط القشرة المتكسرة للكون الأرضي.

وكثيراً ما كان كل منا يحكي أحلامه للآخر. وكان بستوريوس يعرف كيف يفسرها. ويرد إلى ذهني الآن مثال عليها. حلمت بأنني قادر على الطيران ولكن بطريقة كنت أبدو فيها مقذوفاً في الجو وفاقداً للسيطرة على نفسي. وقد أبهجني شعوري بالطيران، ولكن البهجة تحولت إلى خوف عندما رأيت نفسي منقذفاً أعلى فأعلى وأنا أفقد قوتي شيئاً فشيئاً. وفي تلك اللحظة اكتشفت الاكتشاف المنقذ بأنني

6

يعقوب يصارع

يستحيل عليّ أن أعيد، باختصار، رواية كل ما قاله لي الموسيقي غريب الأطوار بستوريوس، عن أبراكساس، والأكثر أهمية هو أن ما تعلمته منه كان يمثل خطوة إضافية على الطريق نحو نفسي. في ذلك الحين كنت شاباً غير عادي في الثامنة عشرة، مبكر النضج في أكثر من مجال، وفي مجالات أخرى عديدة غراً وضعيفاً. وحين كنت أقارن نفسي مع أولاد آخرين في مثل سني كنت كثيراً ما أشعر بالفخر والغرور ولكن أظل مخزيّاً ومحبطاً. وكثيراً ما كنت أعتبر نفسي عبقرياً، وبالمقدار ذاته، معتوهاً. لم أنجح في المشاركة في حياة الفتيان الذين هم في عمري، وظلت تستهلكني المخاوف ومحاسبة النفس: كنت منفصلاً تماماً عنهم، ومحروماً من الحياة.

وبستوريوس، الذي كان هو الآخر غريباً كامل النمو، علمني كيف أحافظ على شجاعتي واحترامي لنفسي. فباكتشاف شيء ذي قيمة في ما أقول وفي أحلامي وخيالاتي وأفكاري، وبعدم الاستخفاف بها إطلاقاً وبإعطائها حقها دائماً، صار مثلي الأعلى.

قال: قلت لي إنك تحب الموسيقى لأنها لا أخلاقية. وهذا مقبول لديّ ولكن في هذه الحالة لاتستطيع أن تسمح لنفسك بأن تكون أخلاقياً. إنك لاتستطيع أن تقارن نفسك بالآخرين. فإذا كانت الطبيعة قد جعلتك خفاشاً فإنك يجب أن لاتحاول أن تصير نعامة. أنت تعتبر نفسك

غريباً في بعض الأحيان. وإنك تتهم نفسك بانتهاج سبيل مختلف عن معظم الناس. عليك أن تنسى ذلك. حدق في النار، في الغيوم، وحالما تبدأ الأصوات الداخلية بالكلام استسلم لها. لاتسأل منذ البداية عما إذا كان هذا مسموحاً أم مُرضياً لأساتذتك أو أبيك أو إله من الآلهة. إن فعلت ذلك دمرت نفسك. وفي هذه الحالة تصبح مقيداً إلى الأرض، مثل نوع من الخضراوات. اسم إلهنا، يا سنكلير، هو أبراكساس. وهو إله وشيطان ويشتمل على العالمين النوراني والمعتم. إن أبراكساس لايهمل أياً من أفكارك أو أحلامك. لاتنس ذلك أبداً. إلا أنه سيتخلى عنك حالما تصبح عادياً وبريئاً. سيتركك عندها ويبحث عن وعاء آخر يخمّر أفكاره فيه.

بين أحلامي كلها كان الحلم المعتم عن الحب أصدقّها. كم حلمت أنني أمشي تحت الطائر الإنذاري في بيتنا، وأنني أريد أن أجذب أمي إلي، وبدلاً منها أجذب المرأة، نصف الذكر، نصف الأم، بين ذراعي، والتي أخاف منها ولكنها تجذبني إليها بعنف. ولم أستطع، أبداً، أن أعترف بهذا الحلم لصديقي. احتفظت به لنفسي حتى بعد أن كنت قد أخبرته بكل شيء آخر. كان هذا الحلم زاويتي، وسري، وملجئي.

حين كانت أحوالي تسوء كنت أطلب من بستوريوس أن يعزف لي الباساكاغاليا لبكستيهود. وعندها أجلس في الكنيسة المعتمة وأنا غارق كلياً في الموسيقى الغريبة في إلفتها وفي أفكارها الذاتية، الموسيقى التي كان يبدو أنها تصغي لنفسها وكانت، في كل مرة، تريحني وتجعلني أكثر استعداداً للالتفات إلى أصواتي الداخلية.

أحياناً كنا نبقى حتى بعد انتهاء الموسيقى. كنا نراقب الضوء الضعيف الراشح من النوافذ العالية ذات الأقواس الحادة والذي يتبدد في الكنيسة.

قال بستوريوس: يبدو غريباً أنني كنت طالب لاهوت ذات يوم وأنني كدت أصير قساً. لكنني لم أرتكب إلا خطأ في الشكل. ماتزال مهمتي ومايزال هدفي أن أصير قساً. لكنني اكتفيت بسرعة وقدمت نفسي إلى يهوه قبل أن أعرف شيئاً عن أبراكساس. صحيح. كل دين

جميل، الدين هو الروح سواء انخرطت في جماعة مسيحية أو قمت بالحج إلى مكة.

وتدخلت: ولكن في هذه الحالة كان من الممكن فعلاً أن تصير قساً.

ـ لا يا سنكلير، كان عليّ عندها أن أكذب. ديننا يُمارس كما لو أنه شيء آخر، شيء عقيم تماماً. ولوأن السيء قاد إلى الأسوأ لصرت كاثوليكياً. أما قس بروتستانتي فلا. إن المؤمنين الأصلاء القلة ـ وأنا أعرف بعضهم ـ يفضلون التفسير الحرفي. لم يكن في وسعي، عندها، أن أخبرهم، مثلاً، أن المسيح ليس بالنسبة لي شخصاً بل إنه بطل، أسطورة، صورة ظليلية غريبة رسمت الإنسانية نفسها فيها على جدار الخلود. أما الآخرون الذين يأتون إلى الكنيسة لسماع بعض العبارات الرشيقة البارعة، ولتأدية واجب، وللتأكد من عدم تضييع شيء، وما إلى ذلك فما الذي أستطيع أن أقوله لهم؟ أهديهم؟ أهذا ما تعنيه؟ ولكن ليست لديّ الرغبة في ذلك. القس لايريد أن يهدي. هو يريد، فقط، أن يعيش بين المؤمنين، بين أناس على شاكلته. إنه يريد أن يكون الأداة والتعبير عن الشعور الذي منه خلقنا آلهتنا.

وتوقف قليلاً ثم تابع: يا صديقي إن ديننا الجديد، الذي اخترنا له اسم أبراكساس، هو دين جميل. إنه أفضل ما لدينا. ولكنه مايزال فرخاً بزغب. لم ينمُ جناحاه بعد. والدين المعزول ليس ديناً، يجب أن تكون هناك جماعة، يجب أن يكون هناك مذهب وحالات نشوة وأعياد وأسرار...

ثم غرق في ذاكرته وضاع نهائياً داخل نفسه.

وسألته متردداً: ألا يستطيع المرء أن يمارس أسراره مع نفسه أو مع جماعة صغيرة جداً؟

هز رأسه وقال: نعم. يستطيع. لقد كنت أمارسها مع نفسي منذ زمن طويل. إن لديّ مذاهبي الخاصة بي التي يمكن أن أُحكم من أجلها بالسجن سنوات لو عرف بها أحد. لكنني ما أزال أعرف أنها ليست الشيء الصحيح.

وبغتة ضربني على كتفي فأجفلت. وقال بحدة: يا ولد. أنت أيضاً لديك أسرارك. أنا أعرف أنك ترى أحلاماً لاتحكيها لي. لا أريد أن أعرفها. ولكن أستطيع أن أقول لك: عش هذه الأحلام، العب معها، وابن مذابح لها. إنها ليست مثالية بعد. ولكنها تشير إلى الاتجاه الصحيح. ومسألة أنني، وأنت، مع قلة آخرين سوف نجدد العالم تظل غير محسومة. ولكن داخل نفوسنا يجب أن نجدده كل يوم وإلا كنا غير جديين. لاتنس ذلك! إنك في الثامنة عشرة يا سنكلير وأنت لاتركض وراء العاهرات. يجب أن تكون لديك أحلام عن الحب ويجب أن تكون لديك رغبات. ربما كنت مكوَّناً بطريقة تجعلك تخاف منها. لاتخف. إنها أفضل ما لديك. تستطيع أن تصدقني. لقد ضيعت وقتاً طويلاً حين كنت في مثل سنك بانتهاك هذه الأحلام المتعلقة بالحب. يجب أن لايفعل المرء ذلك. حين تعرف شيئاً ما عن أبراكساس لاتعود قادراً على فعل ذلك. ليس مسموحاً لك أن تخاف من أي شيء. ولاتستطيع أن تعتبر شيئاً مما ترغب فيه الروح محرماً.

قاطعته مرتبكاً: لكنك لاتستطيع أن تفعل كل ما يخطر لك. لاتستطيع أن تقتل شخصاً ما لمجرد أنك تمقته.

اقترب مني وقال: في ظروف معينة حتى هذا ممكن. إلا أنه في معظم الأحيان خطأ. وأنا لاأعني أن عليك أن تنفذ كل ما يطرأ على بالك. لا، ولكن يجب أن لاتسيء إلى هذه الأفكار، أو تستبعدها بعد أن تكون قد بدت معقولة بتطهيرها، أو بإخضاعها للأخلاق. وبدل أن تصلب نفسك أو غيرك تستطيع أن تشرب الخمرة من كأس القربان ثم تفكر في لغز التضحية. وحتى دون هذه البروتوكولات يمكنك التعامل مع نوازعك وما يسمى بالغوايات باحترام ومحبة وعندها ستكشف، هي، عن معانيها ـ وكلها لها معان. إذا صادف أن عدت إلى التفكير بشيء مجنون فعلاً أو مرتبط بالخطيئة، إذا خطر لك أن تقتل أحداً أو أردت أن ترتكب فعلاً شائناً، يا سنكلير، ففي هذه اللحظة فكر أن أبراكساس هو الذي يزين لك الأمر. والشخص الذي تريد أن تتخلص منه ليس فلاناً بل هو مجرد مظهر خادع. إذا كرهت شخصاً فإنك تكره شيئاً فيه هو جزء منك أنت. وما ليس جزءاً منا لايزعجنا.

لم يسبق لبستوريوس أن قال لي شيئاً مسّني من الأعماق مثل هذا الكلام. لم أستطع أن أرد. ولكن ما كان شديد التأثير عليّ وبأغرب الطرق هو التشابه بين هذا النصح وبين نصح دميان الذي كنت أحمله معي منذ سنوات. لم يكن أحدهما يعرف الآخر لكن كلاً منهما قال لي الكلام ذاته.

وبلطفٍ أضاف بستوريوس: الأشياء التي نراها هي الأشياء ذاتها التي نحملها في أعماقنا. ولا حقيقة إلا تلك التي نحملها فينا. ولهذا فإن هناك الكثيرين ممن يعيشون حياة غير حقيقية. إنهم يعتبرون الصور الخارجية حقائق ولايسمحون للعالم الموجود في داخلهم أن يكشف عن نفسه. تستطيع أن تكون سعيداً بهذه الطريقة. ولكن ما إن تتعرف على التفسير الآخر، حتى تصبح غير قادر بعدها على السير وراء الحشود. إن طريق الأغلبية يا سنكلير طريق سهل. أما طريقنا فصعب.

بعد أيام قليلة، وبعد أن انتظرت مرتين دون جدوى، التقيته ليلاً والريح الليلية الباردة تدفعه عند أحد المنعطفات، يتعثر بنفسه وهو سكران حتى العياء. ولم أحس برغبة في أن أناديه. مرَّ بي دون أن يراني وهو يحدق أمامه بعينين ذاهلتين متألقتين وكأنه يلحق بشيء غامض يدعوه من المجهول. تبعته طوال الطريق. وكان يندفع إلى الأمام، وكأن خيطاً غير مرئي يشده، بمشية متوترة، ولكنها حرة، كمشية الشبح. وعدتُ بحزن إلى البيت وإلى أحلامي غير المتحققة.

هكذا، إذن، يجدد العالم في داخله! وفي اللحظة ذاتها، التي خطرت لي فيها الفكرة، شعرت بأنها فكرة حقيرة مؤلمة أخلاقياً. ما الذي أعرفه عن أحلامه؟ ربما كان يسير، في نشوته، على طريق أكثر ثباتاً ووضوحاً من طريقي في أحلامي.

وكنت قد لاحظت عدة مرات في الاستراحات بين الدروس أن أحد الزملاء، ممن لم أكن قد أوليته أي اهتمام، يهتم بي ويتابعني. كان ولداً نحيلاً ضعيف المظهر ذا شعر أشقر محمراً، وكانت نظرة عينيه وسلوكه غير عاديين، وذات مساء وفيما كنت عائداً إلى البيت رأيته يستلقي في

الزقاق بانتظاري. تركني أعبره ثم تبعني حتى وقف عندما وقفت أمام المدخل.

سألته: أتريد مني شيئاً؟

فقال بخجل: لا أريد إلا أن أتحدث معك مرة. فهل تتلطف بأن تمشي معي قليلاً؟

تبعته وأنا أحس أنه مستثار ومليء بالتوقعات. كانت يداه ترتجفان.

سألني بغتة: هل أنت من الروحانيين؟

قلت له ضاحكاً: لا يا كنوير. ولا بأي شكل. ما الذي يدعوك إلى الاعتقاد بذلك؟

- هل أنت، إذن، ثيوصوفي(*)؟

- أبداً.

- لاتكن متحفظاً بهذا المقدار. أستطيع أن أحس بشيء خاص لديك. هناك نظرة في عينيك... أنا واثق من أنك تتصل بالأرواح. وأنا لاأسأل من قبيل الفضول المجاني يا سنكلير. أبداً. أنا، نفسي، باحث. وأنا وحيد جداً.

قلت له مشجعاً: هيا. تابع. احكِ لي. أنا لاأعرف الكثير عن الأرواح. فأنا أعيش في أحلامي. إن الآخرين يعيشون في الأحلام ولكن ليس في أحلامهم. وهذا هو الفارق.

قال هامساً: نعم. ربما كان هذا هو الأمر. لايهم نوع الأحلام التي تعيش فيها - هل سمعت بالسحر الأبيض؟

وكان عليّ أن أقول لا.

- أعني حين تتعلم السيطرة على الذات. تستطيع أن تصير مخلداً وأن تسحر الآخرين. هل سبق لك أن أجريت بعض التجارب أو التمرينات؟

(*) الثيوصوفية: معرفة الله عن طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي - المورد.

وبعد أن سألته عن ماهية هذه «التمرينات» صار أكثر تكتماً وإلى أن هممت بالعودة. وعندها أخبرني بكل شيء.

ـ مثلاً، حين أريد أن أنام، أو أريد أن أركّز على شيء ما أقوم بواحد من هذه التمرينات. أفكر بشيء ما، بكلمة مثلاً، أو باسم، أو بمسألة حسابية. ثم أستغرق في هذه المسألة قدر ما أستطيع. أحاول أن أتصورها إلى أن أحس بها فعلاً داخل رأسي. ثم أفكر بها من خلال حلقي، وهكذا، إلى أن أمتلئ بها تماماً. ثم أصبح متيناً وكأنني قد تحولت إلى حجر فلا يعود في وسع أي شيء أن يحول انتباهي.

كونت فكرة غامضة عما يقصده. إلا أنني كنت واثقاً من أن هناك شيئاً ما غير ذلك يزعجه فقد كان قلقاً ومستثاراً بشكل غريب، وحاولت أن أسهّل عليه الكلام، ولم يطل به الأمر فأعرب عن نيته الحقيقية.

سأل بامتعاض: أنت عفيف، أليس كذلك؟

ـ ماذا تعني؟ جنسياً؟

ـ نعم. لقد ظللت عفيفاً طوال سنتين ـ منذ أن اكتشفت مسألة التمرينات. لقد ظللت فاسداً حتى ذلك الحين أنت تعرف ما أعنيه ـ يعني أنت. ألم يسبق لك أن كنت مع امرأة؟

قلت: لا. لم أجد المرأة الملائمة.

ـ ولكن إذا وجدت المرأة وأحسست أنها المرأة الملائمة فهل كنت ستنام معها؟

ـ بالطبع ـ إن لم يكن لديها مانع. قلت ذلك بشيء من السخرية والهزء.

ـ أنت تسير على الطريق الخاطئ. لن تستطيع ترويض طاقاتك الداخلية إلا إذا كنت عفيفاً تماماً. ولقد فعلت ذلك ـ طوال سنتين كاملتين؛ سنتين وما يزيد عن الشهر! الأمر في غاية الصعوبة. أحس أحياناً أنني لا أستطيع الصمود أطول من ذلك.

ـ اسمع يا كنوير... لا أعتقد أن العفة بهذا القدر من الأهمية.

قال معترضاً: أعرف. هذا ما يقولونه جميعاً. ولكنني لم أتوقع أن

تقول الكلام ذاته! إن أردت أن تسمو، وتسلك الطريق الروحي، فإن عليك أن تظل طاهراً تماماً.

ـ طيب. كن طاهراً إذن. لكنني لا أفهم لماذا يُعتبر شخص ما أكثر طهارة من غيره إذا ما قمع رغباته الجنسية. أم أنك قادر على مسح الجنس من أفكارك وأحلامك كلها؟

تطلع إليّ بنظرة يائسة: لا. وهذا هو الموضوع. يا إلهي. ولكن يجب أن أفعل ذلك، تأتيني أحلام في الليل لا أستطيع حتى أن أحكيها لنفسي. أحلام مرعبة.

تذكرت ما كان بستوريوس قد قاله لي. ولكن على الرغم من موافقتي على أفكاره لم أستطع تقبلها. ولم أستطع أن أقدم نصيحة غير نابعة من خبرتي وأنا غير قادر على تنفيذها. صمتُ. وأحسست بالمهانة لعجزي عن تقديم نصيحة لشخص يطلبها مني.

وأنَّ كنوير قربي قائلاً: لقد جربت كل شيء. فعلت كل ما يمكن فعله. الماء البارد، الثلج، التمرينات الجسدية والركض ولكن لم ينفعني شيء منها. في كل ليلة أستيقظ من أحلام ليس مسموحاً لي بالتفكير فيها ـ والجانب المرعب منها هو أنني خلال ذلك صرت، بالتدريج، أنسى كل شيء روحاني تعلمته، إنني لم أعد أنجح تماماً في التركيز أو في تنويم نفسي. كثيراً ما أستلقي متيقظاً طوال الليل. لايمكن أن يستمر الأمر على هذا الحال. إذا صرت غير طاهر مرة أخرى فإنني سأكون شريراً أكثر من جميع الذين لم يخوضوا معركة. ألا تفهم ما أعنيه؟.

هززت رأسي ولم أستطع أن أعلق بشيء. بدأ حديثه يثير مللي وأزعجني أن حاجته الواضحة ويأسه لن يتركا إنطباعاً أعمق لديّ. وكان الشعور الوحيد لديّ: لاأستطيع أن أساعدك.

وفي النهاية سألني وهو حزين ومرهق: أنت إذن لاتعرف شيئاً؟ لاشيء أبداً؟ ولكن لابد من وجود حل. كيف تواجه، أنت، الأمر؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك شيئاً يا كنوير. نحن لانستطيع مساعدة أي إنسان. ولم يساعدني أحد أيضاً. يجب أن تسوي المسألة مع نفسك.

وبعدها عليك أن تفعل ما يتوق إليه قلبك في داخلك. لا حل غير هذا. وإن لم تستطع أن تجده بنفسك فإنك لن تجد أرواحاً أيضاً.

تطلع الزميل القصير إليّ، منزعجاً وخالياً من الكلام بشكل مفاجئ. ثم التمعت عيناه بالكراهية. فكشر وزعق: يالك من قديس ظريف! أنت، نفسك، منحرف، كما أرى. إنك تتظاهر بالحكمة لكنك، سراً، تتعلق بالقذارة ذاتها التي نتعلق بها نحن. أنت خنزير. خنزير مثلي. نحن، كلنا، خنازير.

ذهبت وتركته واقفاً. تبعني خطوتين أو ثلاث خطوات ثم التفت وركض مبتعداً. شعرت... أثار قرفي شعوري بالشفقة والامتعاض. ولم أتخلص من هذا الشعور إلا بعد أن أحطت نفسي، في غرفتي، بعدد من اللوحات واستسلمت لأحلامي. وفوراً عاد الحلم، الحلم عن مدخل البيت والشعار، عن الأم والمرأة الغريبة، واستطعت رؤية سماتها بدقة إلى درجة أنني بدأت أرسم صورتها في ذلك المساء ذاته.

عندما اكتملت اللوحة، بعد شغل عدة أيام، وكانت قد تشكلت ملامحها بما يشبه الحلم في جهد خمس عشرة دقيقة، علقتها على الجدار وقربت منها مصباح المكتب، ثم وقفت أمامها وكأنني أقف أمام شبح عليّ أن أكافحه حتى النهاية. كان وجهاً شبيهاً بالوجه السابق - وبعض قسماته تشبهني أنا. كان واضحاً أن إحدى العينين أعلى من الأخرى، والنظرة تمر من فوقي وتتجاوزني، غارقة في ذاتها وثابتة ومليئة بالكارثة.

وقفت أمامها وقد بدأت، في داخلي، أتجمد نتيجة جهدي. سألت اللوحة وأنّبتها ومارست الجنس معها وصليت لها. سميتها أماً وسميتها عاهرة وكلبة وسميتها أبراكساس. وخطرت لي كلمات سبق أن قالها بستوريوس - أمْ دميان؟ - وسط لعناتي. ولم أستطع أن أتذكر من كان قد قالها لكنني أحسست أنني أستطيع أن أسمعها من جديد. كانت كلماتي عن صراع يعقوب مع ملاك الرب وقوله: «لن أدعك تذهب قبل أن تباركني».

كان الوجه المرسوم، تحت ضوء المصباح، يتغير مع كل فقرة -

يصير مضاء ونيراً، ثم يصير معتماً ومكتئباً، يغمض جفنيه على عينين ميتتين ثم يفتحهما من جديد فتلتمع نظراته المضيئة. كان امرأة ورجلاً وفتاة وطفلاً وحيواناً، ثم ذاب في مساحة صغيرة من الألوان ثم اتسع وتميز من جديد. وأخيراً، واستجابة لدافع قوي، أغمضت عيني فرأيت الصورة في داخلي، أقوى وأشد من قبل. أردت أن أركع أمامها لكنها كانت جزءاً فعلياً مني فلم أستطع فصلها عن نفسي وكأنها قد تحولت إلى ذاتي.

ثم سمعت زئيراً ثقيلاً وكئيباً وكأنني أمام عاصفة ربيعية. وارتعدت تحت وطأة شعور جديد عصي على الوصف نابع من تجربة مخيفة. تلامعت النجوم أمامي ثم خبت: ذكريات تعود إلى الأيام الأولى المنسية من طفولتي، نعم ذكريات تعود إلى ما قبل وجودي، في المراحل الأولى من التطور، تجمعت محتشدة أمامي. ولكن هذه الذكريات التي بدا عليها أنها تعيد لي كل سر في حياتي لم تتوقف عند الماضي والحاضر، بل تجاوزتهما وكشفت لي عن المستقبل، اقتلعتني من الحاضر وزجتني في أشكال جديدة للحياة كانت صورها تلمع واضحة بشكل باهر ـ ولم أستطع تذكر واحد منها فيما بعد.

أثناء الليل كنت أستيقظ من نوم عميق، وأنا ما أزال مرتدياً ملابسي، ثم أتربع على السرير بشكل منحرف. أشعل المصباح وأحس أن عليّ أن أسترجع شيئاً هاماً ولكنني لا أستطيع تذكر أي شيء مما جرى في الساعة التي مضت. وتدريجياً بدأت أتلمس طريقي. بحثت عن اللوحة ـ لم تكن على الجدار ولا على الطاولة. ثم فكرت أنني أستطيع أن أتذكر بصعوبة بأنني قد أحرقتها. أم أنه حدث في حلمي أنني أحرقتها في راحة يدي ثم ابتلعت رمادها؟!

سيطر عليّ قلق شديد. لبست قبعة وخرجت من البيت عبر الزقاق وكأنني مجبر على ذلك، وركضت في شوارع وساحات لاتحصى وكأن جنوناً يدفعني، وتوقفت للإصغاء قليلاً أمام كنيسة صديقي المعتمة. ثم بحثت، وبحثت بلهفة شديدة ـ دون أن أعرف عم أبحث. مررت بساحة تضم مباني ماتزال بعض نوافذها مضاءة. بعد ذلك وصلت إلى منطقة

تحتوي على بيوت حديثة البناء، وأكوام الآجر في كل مكان وقد غطى الثلج الرمادي جوانب منها. وتذكرت ـ وأنا مندفع تحت سيطرة قوة غريبة وكأنني أمشي في نومي عبر الشوارع ـ البناء الجديد في بلدتي الذي أخذني إليه معذبي، كرومر، لتقديم الدفعة الأولى له. كان مبنى مشابه أمامي في هذه الليلة الشهباء، ومدخله المعتم فاغر. جذبني إلى داخله: ولرغبتي في الهرب رحت أتعثر فوق الرمل والركام. ولكن القوة التي تسيرني كانت أقوى فأجبرت على الدخول.

بين القضبان والحجارة، رحت أترنح وأنا أدخل غرفة موحشة تفوح رائحة الرطوبة والبرد فيها من الاسمنت الحديث. كانت هناك كومة من الرمل، وبقعة مضاءة بشكل خفيف وما تبقى منها فمعتم.

وانطلق صوت مذعور يناديني: يا إلهي. سنكلير. من أين جئت؟

وانتصب من الظلمة شكل إلى جانبي، شخص صغير نحيل، مثل شبح؛ وحتى في حالة الذعر التي كنت فيها عرفت زميلي كنوير.

سألني وهو يكاد يجن من الاثارة: كيف صادف أن جئت إلى هنا؟ كيف استطعت العثور عليّ؟

ولم أفهم.

قلت وأنا مذهول: لم أكن أبحث عنك. تطلبت مني كل كلمة جهداً، وخرجت الكلمات متعثرة عبر شفتين ميتتين.

حدق إليّ: ألم تكن تبحث عني؟

ـ لا. لقد شدني شيء ما. هل ناديتني؟ لابد أنك ناديتني. وبالمناسبة ما الذي تفعله هنا؟ الدنيا ليل.

احتضنني متشنجاً بذراعه النحيلة: نعم، ليل، سيبزغ الفجر قريباً. هل تستطيع أن تغفر لي؟

ـ لماذا أغفر لك؟

ـ لقد كنت شريراً.

الآن، فقط، تذكرت حديثنا. أكان ذلك قبل أربعة أيام أم خمسة؟ بدا

أن عمراً بأكمله قد مرّ منذ ذلك الحين. ولكن بغتة عرفت كل شيء. ليس فقط ما حدث بيننا؛ بل أيضاً سبب مجيئي إلى هنا وما أراد كنوير أن يفعله هنا.

- أكنت تريد أن تنتحر يا كنوير؟

ارتعش بفعل البرد والخوف.

- نعم. أردت ذلك. ولا أعرف ما إذا كنت سأستطيع. كنت أريد الانتظار حتى الصباح.

سحبته إلى الخارج. كانت الأشعة الأولى على الأفق تخفق باردة وقلقة في الفجر الأشهب.

ظللت أجر الولد من ذراعه لفترة. وسمعت نفسي وأنا أقول: عد إلى البيت الآن ولاتنطق بكلمة أمام إنسان. كنت تسير في الطريق الخاطئ. نحن لسنا خنازير كما يبدو عليك أنك تظن. نحن بشر. إننا نخلق الآلهة ونتصارع معها، وهي تباركنا.

تابعنا سيرنا ثم افترقنا دون أن ننطق بكلمة أخرى. وعندما وصلت إلى البيت كان الوقت نهاراً.

كان أفضل ما جنيته من بقائي عدة أسابيع في المدرسة هو الساعات التي قضيتها مع بستوريوس. مع الأرغن، أو أمام ناره. كنا ندرس نصاً يونانياً عن أبراكساس وقرأ لي مقاطع من ترجمة للفيدا(*) وعلمني أن ألفظ كلمة «أوم»(**). ولكن هذه المسائل الخفية لم تكن هي التي تعذبني داخلياً. ما كان ينعشني ويقويني هو التقدم الذي أحرزته في اكتشاف نفسي، والثقة المتزايدة في أحلامي، وأفكاري وتطلعاتي، والمعرفة المتزايدة بالقوة التي كنت أمتلكها في داخلي.

كنت وبستوريوس يفهم كل منا الآخر بكل صيغة ممكنة، كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أفكر به فأكون واثقاً أنه - هو أو رسالة منه - سيصل. كنت أستطيع أن أطلب منه أي شيء، مثلما كنت أسأل دميان، ودون أن يكون، بالضرورة، موجوداً بلحمه ودمه. كل ما كان عليّ أن

(*) فيدا: كتب الهندوس المقدسة. أوم: طقس من الديانة الهندوسية. لمزيد من التفاصيل ارجع إلى رواية سدهارتا - من منشورات الدار.

(**) مقطع صوتي مقدس في الهندوسية (راجع مقدمة سدهارتا).

أفعله هو أن أتصوره ثم أوجه أسئلتي إليه بصيغة أفكار مركزة. وبعدها فإن الجهد النفسي المبذول كله في السؤال يعود إليّ كجواب. ولكن لم يكن شخص بستوريوس أو ماكس دميان الذي كنت أستحضره وأخاطبه، بل هو الصورة التي كنت أحلم بها وكنت قد رسمتها، نصف الذكر، نصف الأنثى، صورة الحلم عن شيطاني. هذا الكائن لم يعد مقصوراً على أحلامي، ولم يعد مقتصراً على التحديد في ورقة بل صار يعيش في داخلي كمثال لنفسي وتكثيف لها.

أما العلاقة التي أقامها كنوير المزمع على الانتحار معي فقد كانت غريبة، وأحياناً مضحكة. منذ تلك الليلة التي أرسلت إليه فيها، تعلق بي تعلق كلب أو خادم أمين. وصار يبذل كل جهد لكي يجعل حياته تجاري حياتي. وصار يطيعني طاعة عمياء. كان يأتي إليّ بأغرب الأسئلة والطلبات. وهو يريد أن يرى أرواحاً وأن يتعلم القبلانية(*) ولم يكن ليصدقني حين أؤكد له جهلي المطبق بهذه الأمور كلها. كان يظن أنه لاوجود لشيء خارج قدراتي. ولكن ما يثير الاستغراب أنه كثيراً ما كان يأتي إليّ بأسئلته المحيرة والغبية في الوقت الذي أكون فيه، أنا، في مواجهة إشكال من إشكالاتي. وكانت أفكاره الخيالية وطلباته كثيراً ما تقدم لي المفتاح ونقطة الانطلاق للوصول إلى حل. وكثيراً ما كان يصبح مزعجاً فأطرده بحزم. إلا إنني كنت أخمن أنه، هو أيضاً، قد أرسِلَ إليّ. ومنه كان يعود إليّ ما سبق أن منحته إياه وبشكل مضاعف. هو أيضاً كان قائداً لي - أو على الأقل كان مقر إرشاد. وقد علمتني الكتب السرية التي كان يجلبها لي والتي كان يبحث فيها عن خلاصه أكثر مما كنت أدرك في ذلك الحين.

فيما بعد انسل كنوير من حياتي دون أن أنتبه له. لم نعد نتصارع أو نتنازع ولم يعد هناك سبب لذلك... على عكس بستوريوس، الذي كنت ما أزال أشترك معه في تجربة غريبة في الأيام الأخيرة من تواجدي في المدرسة.

(*) القبلانية: فلسفية دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً - المورد.

حتى أكثر الناس مسالمة، لابد لهم، في مناسبة أو أكثر في مجرى حياتهم، أن يصطدموا في نزاع مع أجمل فضائل التقوى والعرفان. كنا مستلقيين أمام النار فيما كان يستطرد في حديثه عن أسرار الدين وأشكاله، التي كان يدرسها، والتي كانت قدراتها على التأثير في المستقبل تهيمن عليه. كان ذلك كله يبدو لي سخيفاً وانتقائياً وليس مما له أهمية فعلية؛ كان فيه شيء ذو نكهة تدريسية. وبدا مثل بحث ممل بين مخلفات العوالم السالفة. وبغتة أحسست بنفور من أسلوبه كله، ومن هذا النمط من الميثولوجيات، لعبة الموازييك هذه التي يلعبها بنمط اعتقادي من الدرجة الثانية.

- بستوريوس. قلت بغتة بشيء من الكراهية التي فاجأته وأخافته معاً. عليك أن تحكي لي في مرة قادمة عن أحد أحلامك: عن حلم حقيقي، حلم رأيته ذات ليلة. أما ما تحكيه لي كله فهو شيء أثري.

لم يسبق له أن سمعني أتحدث هكذا. وفي اللحظة ذاتها أدركت بشيء من الخجل والرهبة أن السهم الذي أطلقته عليه، والذي اخترق قلبه، قد أخذ من مستودع أسلحته هو: إنني أقذفه بالتوبيخات التي سبق أن وجهها لنفسه بشيء من الهزء.

صمت فوراً. تطلعت إليه والخوف يملأ قلبي ورأيته وهو يشحب شحوباً رهيباً.

بعد صمت طويل مشحون وضع قطعة حطب جديدة في النار ثم قال بصوت هادئ: معك حق يا سنكلير. أنت ولد بارع وذكي. سأوفر عليك الجانب الأثري بعد الآن. كان يتحدث بهدوء شديد. ولكن كان من الواضح أنه قد جُرح. ما الذي فعلته؟ كنت أريد أن أقول له شيئاً ما مشجعاً، وأن أنشد غفرانه، وأؤكد له حبي وامتناني العميق. وجاءت إلى بالي كلمات مؤثرة - لكنني لم أستطع النطق بها. ظللت مستلقياً وأنا أحدق في النار صامتاً. واحتفظ، هو الآخر، بصمته. ولذا ظللنا مستلقيين والنار تخبو، ومع كل لهب يخمد كنت أشعر بشيء جميل وعزيز يحترق ويتلاشى إلى الأبد ويصبح كأنه لم يكن.

وأخيراً قلت بصوت مقسور ومتسرع: أخشى أنك أسأت فهمي.

وسقطت الكلمات البليدة الخالية من المعنى من شفتي بآلية وكأنني كنت أقرأ في مجلة مسلسلات قصصية.

قال بستوريوس بنعومة: أفهم الأمر تماماً، أنت على حق. وانتظرت فتابع ببطء: بمقدار ما يستطيع أن يكون إنسان ما محقاً في موقفه ضد آخر.

لا. لا. أنا مخطئ. زعق بذلك صوت في داخلي ـ لكنني لم أستطع أن أقول شيئاً. أدركت أنني بكلماتي القليلة قد وضعت إصبعي على ضعفه الجوهري، على بلواه وجرحه. لقد لمست النقطة التي يشك بنفسه فيها أكثر من أي شيء آخر. كان مثله الأعلى «أثرياً». كان يبحث في الماضي. كان رومانتيكياً. وبغتة أدركت من أعماقي أن ما كان عليه بستوريوس وما كان قد أعطاه لي هو بالضبط ما لايستطيع أن يكونه وما لايستطيع أن يمنحه لنفسه. لقد سار بي في طريق سيتخطاه ويتجاوزه، حتى هو القائد، ويتركه في المؤخرة.

الله وحده يعلم كيف يصادف أن يقول إنسان ما شيئاً ما مثل هذا. لم أكن قد قصدت أن يكون الأمر بهذه الكراهية؛ لكنني لم يكن لديّ أدنى تصور عن الخراب الذي سأحدثه. تلفظت بشيء لم أكن أعي مضمونه لحظة التلفظ به. لقد استسلمت لدافع ضعيف وفيه شيء من الذكاء ولكنه حاقد. وصار هذا الدافع قدري. لقد اقترفت، بتفاهة واستهتار، فعلاً وحشياً، اعتبره، هو، حُكْماً.

كم تمنيت لحظتها لو أنه غضب ودافع عن نفسه ووبخني. لكنه لم يقم بشيء من ذلك. وكان عليّ أن أقوم بذلك كله بنفسي. ولعله كان سيبتسم لو أنه استطاع ـ وبما أنه وجد ذلك مستحيلاً فقد كان هذا البرهان الأكيد على عمق الجرح الذي تسببتُ له به.

وبتقبله بهذا الهدوء لتلك الضربة مني، وأنا تلميذه الطائش الناكر للجميل، وبتمسكه بالصمت واعترافه بأنني كنت محقاً، وبقبوله لكلماتي على أنها قدره، جعلني أشمئز من نفسي فزاد فيَ طيشي أكثر مما كان عليه. حين ضربت كنت أتوقع أنني أضرب رجلاً قوياً مسلحاً ـ وتبين أنه مخلوق هادئ سلبي عاجز عن الدفاع عن نفسه مستعد للاستسلام دون اعتراض.

ظل وقتاً طويلاً أمام النار المتضائلة التي كان كل شيء مضيء أو كل هيئة ذاوية فيها يذكرني بساعاتنا الغنية معاً مما يزيد في وعيي لذنبي وفي حجم دَيْني لبستوريوس. وأخيراً لم أعد أستطيع الاحتمال. نهضت وغادرت المكان. وتوقفت طويلاً أمام باب غرفته، وكذلك في الممر المعتم، وأكثر من ذلك أمام المنزل منتظراً أن أسمع ما إذا كان سيلحق بي. ثم التفتُّ لأمضي فمشيت ساعات في البلدة، وفي ضواحيها، وحدائقها وغاباتها حتى حل المساء. وخلال مسيري هذا أحسست للمرة الأولى بعلامة قابيل على جبهتي.

احتجت إلى وقت لكي أستطيع التفكير بوضوح فيما حدث. في البدء كانت أفكاري مليئة باللوم، وبالرغبة في الدفاع عن بستوريوس. ولكنها كانت، كلها، تتحول إلى الاتجاه المعاكس لنيتي. أكثر من ألف مرة كنت فيها على استعداد للأسف والتراجع عن أقوالي الطائشة ـ ولكنها الحقيقة. الآن فقط صرت أستطيع أن أفهم بستوريوس فهماً تاماً وأن أعيد بناء حلمه كاملاً أمامي. كان حلمه أن يكون كاهناً، وأن يدعو للدين الجديد، وأن يقدم صيغاً جديدةً للقوة الداخلية، للحب، للعبادة ولإقامة رموز جديدة، ولكن لم تكن تلك قوته ولم تكن تلك مهمته. لقد ماطل طويلاً في الماضي. وكانت معرفته بالماضي شديدة الدقة. كان يعرف الكثير عن مصر والهند وعن مترا وأبراكساس. وكان حبه متعلقاً بصور سبق للأرض أن رأتها. إلا أنه في أعماقه كان يدرك أن الجديد يجب أن يكون جديداً ومختلفاً بحق، وأنه يجب أن ينبع من تربة جديدة ولايمكن استخلاصه من المتاحف والمكتبات. وكانت مهمته أن يقود الناس إلى نفوسهم مثلما قادني. أما تقديم الآلهة الجديدة التي لاتشبه ما سبقها فلم يكن هذا من شأنه.

عند هذه النقطة تأجج في داخلي إدراك جديد: لكل إنسان «مهمة» خاصة به. لكن ما من مهمة يستطيع المرء أن يختارها وأن يحددها وأن ينجزها كما يرغب. كان من الخطأ البحث عن آلهة جدد، ومن الخطأ الفادح محاولة تقديم شيء للعالم. إن على المتنور واجباً واحداً ـ أن يبحث عن طريق يوصله إلى نفسه، وأن يصل إلى اليقين الداخلي، وأن يتلمس طريقه إلى الأمام، وأينما أدى به ذلك. لقد هزني هذا

الإدراك بعمق: فهو ثمرة هذه التجربة. وكثيراً ما تأملت صوراً من المستقبل، وحلمت بأدوار قد أرشح لها، كالشاعر أو النبي، أو الرسام أو ما يشبه ذلك.

وكان هذا كله عبثاً. إذ أنني لم أخلق لكتابة القصائد أو للوعظ أو للرسم. لا أنا ولاغيري. هذا كله يأتي بالمصادفة. لكل إنسان مهمة أصيلة واحدة ـ هي العثور على طريق نحو نفسه. قد ينتهي به الأمر أن يصبح شاعراً أو مجنوناً، نبياً أو مجرماً ـ فهذا ليس من شأنه ولا مبرر إطلاقاً للاهتمام به. أن وظيفته هي أن يكتشف مصيره ـ ليس المصير الاعتباطي التعسفي ـ وأن يعيشه كاملاً وبحزم مع نفسه. أما ما عداه فهو الوجود المحتمل، محاولة تملص، عودة هاربة إلى مُثُل الجماهير، مصالحة وخوف المرء من داخله. وبرزت الرؤية الجديدة أمامي، وأومضت مئات المرات، ربما كان قد عُبِّر عنها من قبل ولكنها تُختبر وتعاش الآن للمرة الأولى من قبلي، لقد كنت ذا خبرة فيما يتعلق بالطبيعة، ومقامراً وسط المجهول، وربما من أجل غرض جديد، وربما من أجل لاشيء. وكانت مهمتي الأولى هي السماح لهذه اللعبة المتعلقة بالأعماق البدائية أن تأخذ مجراها، وأن تمارس إرادتها في داخلي وأن تحولها إلى إرادة لي، هذا أو لا شيء.

كنت أحس، حتى الآن، بقدر كبير من الوحشة أما الآن فقد كانت الوحشة أعمق ولامفر منها.

لم أبذل أي جهد للتصالح مع بستوريوس. ظللنا صديقين. ولكن العلاقة تغيرت. وكان هذا مالم نعد إلى لمسه إلا مرة واحدة. والحقيقة أن بستوريوس، نفسه، هو الذي فعل ذلك. قال:

أنت تعرف أن لديّ الرغبة في أن أصير كاهناً ولكنني كنت أريد، بكل جوارحي، أن أصير كاهن الدين الجديد الذي لنا، أنا وأنت، علاقات حميمة به. ولكن هذا الدور لن يكون دوري بعد الآن ـ إنني أدرك ذلك، وحتى دون الاعتراف بذلك أمام نفسي، كنت قد عرفت به منذ وقت طويل. ولذا فإنني سأقوم بواجبات كهنوتية بديلة أخرى، ربما على الأرغن، وربما بطريقة أخرى. ولكن يجب أن تظل حولي دائماً أشياء أحس بأنها جميلة ومقدسة، موسيقى الأرغن والقصص

الغامضة، الرموز والأساطير، إنني أحتاج إليها ولا أستطيع أن أمتنع عنها. أحياناً، يا سنكلير، أعرف أنه يجب أن لاتكون لديّ رغبات من هذا النوع وأنها ضعف وترف. وربما كان من السماحة والعدل أكثر فيما لو أنني وضعت نفسي دون تحفظ تحت تصرف القدر. لكنني لا أستطيع. إنني عاجز عن أن أفعل ذلك. ربما استطعت، أنت، أن تقوم بذلك ذات يوم. إنه لأمر صعب. وهو الأمر الصعب الوحيد فعلاً. طالما حلمت بذلك. لكنني لا أستطيع. إن الفكرة تملأني بالرهبة. إنني أعجز عن الوقوف هكذا، عارياً ووحيداً. أنا، أيضاً، مخلوق مسكين وضعيف يحتاج إلى الدفء والطعام وبين حين وآخر إلى راحة الرفقة البشرية. إن الشخص الذي لايبحث إلا عن مصيره ثم لايعود لديه رفاق، يقف وحيداً تماماً ولايبقى حوله إلا الفراغ الكوني البارد. وهذا هو يسوع في حديقة الجثمانية كما تعرف. لقد كان هناك شهداء تقبلوا بسرور أن يُعلقوا على الصلبان. ولكن حتى هؤلاء لم يكونوا أبطالاً، لم يتحرروا، فحتى هؤلاء كانوا يريدون أمراً هم متعلقون به ومتعودون عليه ـ إن لديهم نماذج، ومثلاً عليا. ولكن الإنسان الذي يبحث عن مصيره ليس لديه نماذج أو مُثل، ليس لديه شيء عزيز عليه أو يمكن أن يعزيه ويعوضه. وهذا هو الطريق الذي على المرء أن يسلكه فعلاً. الذين هم مثلك ومثلي وحيدون جداً ولكن مازال لدى كل منا زميله الآخر. إن لدينا الرضا السري عن كوننا مختلفين، متمردين، راغبين في غير المألوف. ولكن عليك أن تهمل ذلك أيضاً، إذا كنت تريد الاستمرار في الطريق حتى النهاية. لاتستطيع أن تسمح لنفسك بأن تكون ثورياً، أو مثالاً، أو شهيداً إنه أمر يفوق التصور.

نعم. لقد كان أمراً يفوق التصور، ولكن من الممكن الحلم به وتوقعه وتخمينه. وأكثر من مرة كنت أحس بدلالة منذورة به ـ في ساعة السكون المطلق. وعندها كنت أحدق في نفسي وأواجه صورة مصيري. وتكون عيونه مليئة بالحكمة، ومليئة بالجنون، إنها تشع حباً أو حقداً وفي الحالات كلها تظل كما هي. ليس مسموحاً لك أن تختار أو ترغب في واحد منها، المسموح لك، فقط، هو أن ترغب في نفسك، في مصيرك وحده. وحتى هذه النقطة كان بستوريوس دليلي ومرشدي.

في تلك الأيام كنت أتنقل كالأعمى، أحس بنوبات جنون ـ فكل خطوة كانت خطراً جديداً، لم أكن أرى أمامي إلا الظلام الذي لايسبر غوره والذي فيه كل الطرق التي سلكتها حتى الآن قد طمست. وفي أعماقي كنت أرى صورة.السيد الذي يشبه دميان، وفي عينيه كان مصيري مكتوباً.

كتبت على ورقة: «قائد تخلى عني. وأنا غارق في الظلمة. لا أستطيع أن أمشي خطوة أخرى وحدي، ساعدني».

وكنت أريد أن أرسلها بالبريد إلى دميان، لكنني لم أفعل. وكلما أردت أن أرسلها كانت تبدو سخيفة ولامعنى لها. غير أني كنت أحفظ صلاتي الصغيرة، هذه، عن ظهر قلب وأستظهرها لنفسي. فكانت شغلي الشاغل طوال اليوم. وبدأت أفهمها.

انتهت أيام المدرسة. سأقوم برحلة خلال عطلتي ـ وكانت تلك فكرة والدي ثم أدخل الجامعة. لكنني لم أكن أعرف ما الذي سأختص به. ثم أعطيت حسب رغبتي: فصل في الفلسفة. وكان أي موضوع آخر مقبولاً مثله.

7

إيفا

ذات مرة، خلال العطلة، قمت بزيارة البيت الذي كان يعيش فيه دميان، قبل سنوات، مع أمه، فرأيت عجوزاً تتمشى في الحديقة. وبالتحدث معها عرفت أنه بيتها. سألتها عن أسرة دميان. فتذكرتها جيداً لكنها لم تستطع أن تخبرني أين تعيش الأسرة الآن. وعندما أحست باهتمامي أدخلتني إلى البيت، وأخرجت ألبوماً جلدياً وأرتني صورة لأم دميان. لم أكن أستطيع أن أتذكر شكلها جيداً، ولكن وأنا أرى صورتها الصغيرة توقف قلبي. إنها صورة أحلامي! هي، المرأة الطويلة الشبيهة بالذكور، التي تشبه ابنها، مع لمسات أمومة، وقسوة، وعاطفة؛ جميلة ومغرية، جميلة وعصية، الشيطان وأمه، المصير والمعشوقة. ولم يكن هناك مجال للخطأ فيها.

لقد صدمني اكتشافي بهذه الطريقة أن صورة أحلامي موجودة واقعية وكأنني عثرت على معجزة. هناك، إذن، امرأة لها هذا الشكل وتحمل ملامح مصيري! وأم دميان! أين هي؟

بعد قليل حططت رحالي، ويا لها من رحلة غريبة. لقد رحلت دون توقف من مكان إلى آخر، لاحقاً بكل دافع، وأنا أبحث دائماً عن هذه المرأة. ولقد مرت بي أيام كان كل من ألتقي به يذكرني بها أو يعطي انطباعاً شبيهاً بها، أو يشبهها؛ وكان يستجرني في شوارع مدن غير مألوفة، وإلى محطات السكك الحديدية، وفي القطارات، كما يحدث في

حلم معقد. وكانت هناك أيام كنت أحس فيها بعبثية بحثي. وعندها كنت أجلس بتكاسل في أي مكان، في حديقة عامة، أو في حديقة فندق ما، في غرفة انتظار محاولاً إحياء الصورة في داخلي. لكنها تصبح خجولاً ومراوغة. ويصبح من المستحيل عليّ أن أنام. وفي سفري بالقطار، فقط، كنت أستطيع أن أغفو غفوة قصيرة. وذات مرة، في ميونيخ، تقربت مني امرأة، وكانت مخلوقاً جميلاً وقحاً. ولم أنتبه إليها جيداً. فعبرت بها وكأنها غير موجودة. ولو أنني اهتممت بامرأة أخرى، ولو لساعة واحدة فقط، لمتُّ لتوي.

أحسست بقدري يجرني، وأحسست بلحظة تحققي تقترب، وقد أمضّني نفاد صبري لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. ومرة في محطة للسكك الحديدية، في انسبرك على ما أظن، لمحت امرأة ذكرتني بها ـ في قطار منطلق لتوه. فظللت تعيساً عدة أيام. وبغتة عاد الشكل إلى الظهور في أحد الأحلام في إحدى الليالي. أفقت مخزياً ومغموماً لفشل مطاردتي ثم أخذت القطار التالي عائداً.

بعد أسابيع قليلة سجلت في جامعة (هـ) ووجدت كل ما فيها مخيِّباً. كانت المحاضرات عن تاريخ الفلسفة عديمة الحياة ومقولبة مثل نشاطات معظم الطلبة. كل شيء بدا وكأنه يمشي حسب نمط قديم، كل إنسان كان يفعل الشيء ذاته. والبهجة المفتعلة على الوجوه الولادية كانت تبدو، بشكل مفجع، فارغة ومسبقة الصنع. ولكن أنا، على الأقل، كنت حراً. إن لديّ النهار بطوله لنفسي. وكنت أعيش بهدوء وسلام في بيت عتيق قرب سور البلدة. وعلى طاولتي عدة مجلدات لنيتشه. كنت أعيش معه، وأستشعر وحدة روحه، وأتصور المصير الذي كان يسيره بعناد. كنت أعاني معه، وأفرح لأن هناك إنساناً واحداً يمشي إلى مصيره بلا شفقة.

وفي وقت متأخر من إحدى الأمسيات كنت أتمشى في البلدة. وكانت ريح خريفية تهب وكنت أستطيع أن أسمع الصخب الأخوي في الحانات. وكانت سحابات من دخان التبغ تخرج من نافذة مفتوحة مع تدفق أغنية صاخبة إيقاعية عديمة الأصالة وليس فيها نبض حياة.

وقفت عند زاوية الشارع وأصغيت. من البارات كان مرح الشباب

الممنهج المكرور يصخب في الليل. تواصل كاذب في كل مكان، وفي كل مكان هدر لمسؤولية المصير، وهروب إلى القطيع بحثاً عن الدفء.

رجلان يمشيان ببطء جاءا من خلفي. والتقطت بعض الكلمات من حديثهما: كان أحدهما يقول:

ـ أليس شبيهاً ببيت الشباب في كرال(*). إن كل شيء متلائم مع الإيقاعات السائدة مؤخراً. انظر، هذه أوروبا الفتية.

بدا الصوت أليفاً بشكل غريب وموقظ للذاكرة. مشيت وراء الرجلين في الحارة المعتمة. كان أحدهما يابانياً، قصيراً وأنيقاً. وتحت مصباح الشارع رأيت وجهه الأصفر يتألق بابتسامة.

كان الآخر يتحدث الآن من جديد:

ـ أعتقد أن الأمر سيء بالمقدار ذاته حيث أنت، في اليابان. الذين لايلحقون بالقطيع نادرون في كل مكان. هنا يوجد بعضهم أيضاً.

شعرت بمزيج من القلق والغبطة وأنا أتلقى كل كلمة. عرفت المتحدث. إنه دميان. تبعته، والياباني، في الشوارع التي كنستها الرياح. وأنا أستمع إلى حديثهما كنت أتذوق نبرة صوت دميان. ماتزال له هذه الرنة الأليفة، واليقين الجميل القديم ذاته والهدوء. كل ما كان له ذلك التأثير الكبير عليّ. كل شيء على ما يرام الآن. لقد عثرت عليه.

في نهاية شارع في الضاحية انصرف الياباني وفتح باب بيته. وعاد دميان من حيث أتى. كنت قد توقفت ورحت أنتظره وسط الشارع. وبلغت الإثارة حدها الأقصى وأنا أراه يقترب، منتصباً بخطواته المرنة، ومعطفه الرمادي المطاطي الواقي من المطر. ازداد اقتراباً دون أن يغير خطواته إلى أن وقف على بعد خطوات قليلة مني. ثم خلع قبعته وكشف عن وجهه العجوز ذي الجلد الرقيق والفم المصمم والإشراق الغريب على جبهته العريضة.

ـ دميان. هتفت.

مد يده.

ـ هذا أنت إذن يا سنكلير! كنت أنتظرك.

ـ هل كنت تعرف أنني هنا؟

(*) قرية من قرى أهالي جنوب أفريقيا الأصليين ـ المورد.

ـ لم أعرف ذلك بالضبط لكنني، بالتحديد، كنت أرغب في أن تكون هنا. ولم يسبق أن لمحتك قبل هذا المساء. لقد كنت تتبعنا منذ وقت لابأس به.

ـ وهل عرفتني فوراً؟

ـ طبعاً. لقد تغيرت قليلاً. ولكن لديك العلامة.

ـ العلامة. أية علامة؟

ـ فيما مضى كنا نسميها علامة قابيل ـ إن كنت مازلت تذكر. إنها علامتنا. لقد كانت عليك دائماً، ولهذا صرت صديقك. ولكنها صارت الآن أكثر وضوحاً.

ـ لم أكن أعرف ذلك. أو، بدقة، نعم. ذات يوم رسمت صورة لك، يا دميان، وأدهشني أنها كانت تشبهني أيضاً. أكان هذا بسبب العلامة؟

ـ بالضبط. جميل أنك هنا. ستفرح أمي أيضاً.

خفت بغتة.

ـ أمك؟ هل هي هنا أيضاً؟ ولكنها لاتعرفني.

ـ لكنها سمعت بك. وستعرفك حتى دون أن أقول من أنت. لقد ظللنا فترة طويلة نجهل كل شيء عنك.

ـ كنت دائماً أريد أن أكتب لك. ولكن لم تكن هناك فائدة. ولقد عرفت منذ وقت لابأس به أنني سأجدك قريباً. كنت أنتظر ذلك كل يوم.

دفع بذراعه تحت ذراعي وسار معي. وأحاطت بي هالة من السكينة هيمنت عليّ. وسرعان ما عدنا نتحدث كما كنا نفعل في الماضي. وعادت بنا الأفكار إلى أيامنا في المدرسة، ودروس الدين، وأيضاً إلى لقائنا الأخير غير المفرح أثناء عطلتي. الرابط الأقدم والأوثق بيننا، حادثة فرانز كرومر، وحدها، لم نأت على ذكرها.

وبغتة وجدنا نفسينا نخوض حديثاً غريباً يلامس العديد من الموضوعات المشؤومة. ابتدأنا من حيث كان دميان قد توقف في حديثه مع الياباني؛ وناقشنا الحياة التي يعيشها معظم الطلبة، ثم انتقلنا

إلى موضوع آخر، موضوع كان يبدو في أغوار الماضي. ولكن في كلمات دميان توضحت رابطة ودودة مع الحاضر.

تحدث عن روح أوروبا وعن علامات الزمان، قال إنه في كل مكان نستطيع أن نلحظ طغيان غريزة القطيع. ولامكان للحرية والحب. وهذه الروابط المزيفة كلها ـ ومن الجمعيات الأخوية إلى فرق الكورال إلى الأمم ذاتها ـ هي التطور الحتمي، إنها التجمع المولود من الخوف والذعر، من الإحباط، ولكنه في أعماقه مهترئ وبالٍ وآيل إلى الانهيار.

«التجمع الأصيل» قال دميان: «شيء جميل. ولكن مانراه يزدهر في كل مكان شيء مختلف، الروح الحقيقية ستبرز من المعرفة التي يملكها الأفراد المنفصلون كل منهم عن الآخر. وبعد حين من الزمن سوف تحوّل العالم. أما روح التجمع الآن فما هي إلا من تجليات غريزة القطيع. إن كل إنسان يندفع إلى ذراعي الآخر لأن كل إنسان يخاف من الآخر ـ الملاكون على حدة، والعمال على حدة، والطلبة والباحثون على حدة! ولم خوفهم! إنك لاتخاف إلا حين لاتكون منسجماً مع نفسك. والناس خائفون لأنه لم يسبق لهم أن كانوا مسيطرين على أنفسهم. مجتمع بأكمله مؤلف من أناس خائفين من المجهول الذي فيهم. وكلهم يحسون أن الأسس التي يعيشون وفقها لم تعد صالحة، وأنهم يعيشون وفق قوانين بالية ـ لادينهم ولا أخلاقهم في تلاؤم مع حاجات الحاضر. منذ مئة سنة وأكثر لم تفعل أوروبا شيئاً سوى دراسة المعامل وبنائها، إنهم يعرفون كم غراماً من البارود تحتاج لقتل إنسان لكنهم لايعرفون كيف تصلي إلى الله، لايعرفون حتى كيف تكون سعيداً ولو لمدة ساعة من الرضا. أَلْقِ، فقط، نظرة على حالة الطلاب المزرية أو إلى منتجع مما يؤمه الأغنياء. حالة ميؤوس منها. يا عزيزي سنكلير. لايمكن أن يفعل هذا كلّه شيء جيد. هؤلاء الناس الذين يحتشدون معاً بدافع الخوف مليئون بالذعر والكراهية، وما من واحد بينهم يثق بالآخر. إنهم يتطلعون إلى المُثل التي لم تعد مُثلا. ولكنهم سوف يطاردون حتى الموت من يطرح مثلاً جديدة. أكاد أحس منذ الآن الصراع المقبل. صدقني. إنه قادم، وسريعاً جداً. لن «يحسّن» العالم بالطبع. وسواء قضى العمال على أصحاب المعامل أو شنت ألمانيا

الحرب على روسيا فإن هذا لن يعني إلا تغييراً في الملكية. ولن يكون هذا كله دون طائل. إنه سيكشف عن إفلاس المثل الحالية. ستحدث إزالة تامة لآلهة العصر الحجري. العالم، في الحالة التي هو عليها الآن، يحتاج إلى أن يموت، يحتاج إلى أن يفنى ـ وسوف يحدث ذلك».

ـ وما الذي سيحدث لنا أثناء هذا النزاع؟

ـ لنا؟ ربما انتهينا فيه. نوعيتنا يمكن أن تقتل أيضاً. الفارق، فقط، هو أنه لايمكن الانتهاء منا بسهولة. ولكن حول ما يتبقى منا، حول الذين سيتمكنون من البقاء أحياء، سوف تتجمع إرادة المستقبل، إرادة البشرية، التي هتفت قارتنا الأوربية بسقوطها منذ زمن تحت وطأة سعار التكنولوجيا، سوف تتقدم إلى المقدمة من جديد. وعندها سيتبين أن إرادة البشرية ليست في أي مكان ـ ولم تكن من قبل أبداً ـ متطابقة مع مجتمعات العصر الحاضر ودوله وشعوبه ونواديه وكنائسه. أبداً. إن ما تريده الطبيعة من الإنسان مكتوب بشكل راسخ في الفرد، فيك وفيَّ. إنه راسخ في يسوع وهو، أيضاً، راسخ في نيتشه. هذه التيارات ـ والتي هي وحدها المهمة والتي هي، بالطبع قادرة على اتخاذ أشكال مختلفة كل يوم ـ ستجد متنفساً لها حالما تنهار المؤسسات الحالية.

كان الوقت متأخراً عندما توقفنا قرب حديقة على جانب النهر.

ـ هنا نعيش ـ قال دميان ـ يجب أن تأتي قريباً لزيارتنا. لقد كنا ننتظرك.

مليئاً بالبهجة مشيت الطريق الطويل عائداً إلى بيتي في الليل الذي صار الآن بارداً. هنا وهناك الطلاب يعودون مترنحين صاخبين إلى مقراتهم. ولقد سبق لي أن لاحظت التناقض بين مرحهم المضحك وبين وحدانيتي، أحياناً باحتقار، وأحياناً بإحساس بالحرمان. ولكن لم يسبق لي قبل اليوم أن شعرت، بهذا القدر من الهدوء ومن الطاقة الخفية الكامنة، إلى أي مدى لم يكن ذلك يعنيني. وكم كان هذا العالم نائياً عني وميتاً بالنسبة لي. تذكرت الموظفين في بلدتنا، أولئك العجائز المحترمين، وهم يتعلقون بذكريات أيام السكر الجامعية كتذكارات من

الفردوس وهم يعيدون صياغة مذهب عن أيام الدراسة «المنصرمة» مثلما يفعل الشعراء وغيرهم من الرومانتيكيين بطفولتهم. الحالة ذاتها في كل مكان. في كل مكان يتطلعون إلى «الحرية» و«الحظ» في الماضي، وانطلاقاً من الخوف الخالص من مسؤولياتهم الحالية ومن مسار مستقبلهم. لقد شربوا وصخبوا سنوات قليلة ثم تقلصوا متراجعين لكي يصبحوا سادة محترمين ذوي عقول جادة في خدمة الدولة. نعم. لقد كان مجتمعنا متعفناً؛ وتفاهات الطلاب هذه غبية جداً، ولكنها ليست سيئة بمقدار سوء مئات الأشياء الأخرى.

وحين وصلت إلى بيتي البعيد وبدأت أستعد للنوم كانت هذه الأفكار كلها قد تلاشت، وتعلق كياني كله، بأمل، بالوعد الكبير الذي جلبه لي هذا اليوم. حالما أريد، وحتى غداً، أستطيع أن أرى أم دميان. فليمارس الطلاب صخبهم السكران وليدقوا وجوههم بالوشم؛ إن العالم المتعفن يستطيع أن ينتظر دماره - وهذا كل ما يعنيني. كنت أنتظر شيئاً واحداً فقط - أن أرى مصيري يتقدم في مظهر جديد.

نمت حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي. وقد بزغ اليوم الجديد بالنسبة لي مثل عيد مهيب، ذلك النوع من الأعياد الذي لم أعشه منذ طفولتي. لقد كنت معبأً بالقلق ولكن دون خوف من أي نوع. شعرت بأن يوماً مهمّاً بالنسبة لي قد بدأ. ولقد رأيت وعشت العالم المتغير من حولي وهو يتحول إلى عالم واعد ذي معنى وهيبة. حتى المطر الخريفي اللطيف كان له جماله وهواؤه الهادئ البهيج المترع بالموسيقى السعيدة القدسية. وللمرة الأولى كان العالم الخارجي متناغماً تماماً مع العالم الداخلي. لقد كان من المفرح أن تكون حياً. لم يزعجني بيت أو نافذة حانوت أو وجه. كل شيء كان كما يجب أن يكون ودون أي مظهر رتيب أو سطحي من مظاهر الشيء اليومي. كان كل شيء جزءاً من الطبيعة، واعداً ومستعداً لمواجهة مصيره باحترام. هكذا كان العالم يبدو لي في الصباحات التي كنت ماأزال فيها طفلاً صغيراً، في أيام الأعياد الكبيرة، عيد الميلاد وعيد الفصح. لقد نسيت أن العالم مازال في وسعه أن يكون ودوداً ولطيفاً. كبرت وأنا أتعود العيش مع داخلي. ولقد استرخيت أمام معرفتي بأنني قد فقدت كل

تقويم للعالم الخارجي، أن ضياع ألوانه البراقة جزء لايتجزأ من ضياع طفولتي، وأنه، بمعنى من المعاني، على المرء أن يتخلى عن هذه الهالة المغرية ثمناً لحريته ولنضج روحه. أما الآن، والغبطة تغمرني، فقد رأيت أن هذا كله كان مدفوناً أو مستتراً وأنه مازال من الممكن ـ حتى لو تحررت وفقدت سعادة طفولتك ـ أن ترى العالم يشع وأن تنقذ الرعشة اللذيذة التي كانت في رؤيا الطفل.

وجاءت اللحظة التي عثرت فيها على طريق العودة إلى الحديقة في ظاهر البلدة حيث ودعت دميان في الليلة السابقة. كان هناك بيت صغير ومقبول يتخفى وراء أشجار طويلة رطبة. وكانت هناك نباتات مزهرة وراء الزجاج: ووراء النوافذ اللامعة كانت هناك جدران قائمة وعليها صور ورفوف من الكتب. وكان المدخل يؤدي مباشرة إلى ممر صغير دافئ. وقادتني خادمة عجوز صامتة ترتدي الأسود مع مئزر أبيض ثم أخذت سترتي.

تركتني في الرواق وحدي، تطلعت حولي وسرعان ما غرقت في لجة حلمي. في الأعلى وعلى جدار مغطى بالخشب الغامق، فوق الباب، كانت هناك صورة معروفة. صورة طائري برأس الباشق الأصفر الذهبي يحاول التملص من قوقعته الدنيوية. تأثرت بعمق فوقفت حيث كنت بلا حراك ـ شعرت بالألم والغبطة معاً وكأن كل ما كنت قد فعلته وعرفته قد عاد إليّ في تلك اللحظة بصيغة جواب وتحقق. وبومضة رأيت حشوداً من الصور تعبر مخيلتي: بيت والديَّ والشعار على مدخله، والولد دميان يرسم الخطوط العريضة له، وأنا الولد تحت رحمة عدوي كرومر، ثم أنا اليافع في غرفتي في المدرسة أرسم طائر أحلامي على طاولة هادئة، والروح العالقة في حبالها الذاتية ـ وكل شيء، كل شيء حتى هذه اللحظة راح صداه يتردد في أعماقي من جديد، وفي داخلي يتأكد ويجد جوابه ويُصادق عليه.

بعينين مغرورقتين بالدموع حدقت إلى صورتي ورحت أقرأ نفسي. ثم أنزلت عينيَّ: تحت صورة الطائر ووسط الباب المفتوح كانت هناك امرأة طويلة تقف بملابس سوداء. إنها هي.

عجزت عن أن ألفظ كلمة. وبوجه شبيه بوجه ابنها، وجه خارج

الزمن والعمر، ومليء بالقوة الداخلية، ابتسمت المرأة الجميلة ابتسامة رصينة. كانت تطليعتها تحققاً، وتحيتها عودة إلى البيت الأليف، بصمت مددت يديَّ لها. وأخذتهما بين يديها القويتين الدافئتين.

- أنت سنكلير. لقد عرفتك فوراً. أهلاً بك.

كان صوتها عميقاً ودافئاً. وتشربته مثل خمرة حلوة. ورحت أتطلع إلى وجهها الهادئ، وإلى العينين السوداوين اللتين لايسبر غورهما، وإلى شفتيها الطازجتين الناضجتين، وإلى الجبين الصافي البهي الذي يحمل العلامة.

- كم أنا سعيد. قلت وأنا أقبل يديها. أعتقد أنني كنت أمشي طوال حياتي وأنني، الآن، أصل إلى بيتي.

ابتسمت مثل أم. وقالت:

- لايصل المرء إلى بيته أبداً. ولكن حيث الطرق المتآلفة تتقاطع مع العالم كله يبدو كأنه البيت ولفترة قصيرة.

كانت تعبر عما أحسست به وأنا في طريقي إليها. وكان صوتها وكلامها مثل صوت ابنها وكلامه وفي الوقت ذاته كانا مختلفين تماماً. كل ما فيها كان أكثر نضجاً ودفئاً وتلقائية. ولكن ومثلما أن ماكس لم يعط أحداً الانطباع بأنه ولد، كذلك فإن أمه لم تكن تبدو أبداً كامرأة لديها ابن كبير. كان شعرها ووجهها في غاية العذوبة والفتوة. وكانت بشرتها الذهبية في منتهى التماسك والنعومة، وكان فمها كأبهى ما يمكن أن يكون. وبأبهة تفوق ما عرفت في أحلامي كانت تقف أمامي.

هذه، إذن، هي الهيئة الجديدة التي يتبدى لي فيها مصيري. لم يعد كالحاً ولم يعد يعزلني. بل هو الطازج البهي والمبهج. لم أتخذ قرارات ولم أتعهد بشيء.

لقد حققت هدفاً، ووصلت إلى نقطة سامية في طريقي: ومن هذه النقطة بدت المرحلة الثانية من الرحلة يسيرة ورائعة ومؤدية إلى الدنيا الموعودة. ومهما حدث لي الآن فقد كانت النشوة تملأ كياني: لأن هذه المرأة موجودة في العالم ولأنني أستطيع أن أتشرب صوتها وأتنفس

حضورها. وسواء كانت ستصير أمي أم عشيقتي أم ربتي - يكفيني أنها موجودة! لايهمني إلا أن يكون طريقي قريباً من طريقها.

أشارت إلى لوحتي. وقالت بلهجة متأملة:

- لايمكنك أن تجعل ماكس سعيداً أكثر مما كان بهذه الصورة. وكذلك أنا. لقد كنا ننتظرك. وحين وصلت اللوحة عرفنا أنك في الطريق. عندما كنت ولداً صغيراً، يا سنكلير، عاد ابني ذات يوم من المدرسة إلى البيت وقال لي: هناك ولد في المدرسة يحمل العلامة على جبهته ولابد أن يصير صديقي. وكان يعنيك. إنك لم تمر بأيام يسيرة ولكننا كنا واثقين منك. ولقد التقيت بماكس مرة أخرى في إحدى عطلاتك، لابد أنك كنت في السادسة عشرة. وماكس حكى لي عن ذلك اللقاء.

قاطعتها: أخبرك عن ذلك؟ كانت تلك أسوأ فترة في حياتي.

- نعم. قال لي ماكس: إن سنكلير يواجه أصعب مراحله الآن. إنه يقوم بمحاولة أخرى للالتجاء إلى الآخرين. حتى أنه بدأ يذهب إلى البارات. لكنه لن يفلح. إن علامته تغيم لكنها تسيّره سراً. ألم يكن الأمر كذلك؟

- تماماً، في ذلك الحين عثرت على بياتريس ثم في النهاية عثرت على أستاذ جديد. اسمه بستوريوس. عندها، فقط، اتضح لي لماذا كانت طفولتي مرتبطة بهذه الشدة بماكس، ولماذا لاأستطيع أن أتحرر منه. في ذلك الحين، يا أمي العزيزة، عرفت أن عليّ أن ألتزم بحياتي. فهل الطريق صعب بالمقدار نفسه على كل إنسان؟

ربتت على شعري. وكانت لمستها خفيفة مثل نسمة:

- الولادة صعبة دائمة. أنت تعرف أن الفرخ لايخرج من البيضة بسهولة. تذكر وأسأل نفسك: أكان الطريق صعباً فقط؟ ألم يكن جميلاً أيضاً؟ وهل تستطيع أن تفكر في طريق أجمل وأسهل؟

هززت رأسي. ثم قلت: لقد كان صعباً. كان قاسياً إلى أن أتى الحلم.

هزت رأسها واخترقتني بنظرة: نعم. يجب أن تعثر على حلمك، وعندها يصبح الطريق سهلاً. ولكن ليس هناك حلم يدوم إلى الأبد. كل حلم يتلوه حلم آخر. وعلى المرء أن لايتعلق بحلم محدد.

اضطربت وخفت. أكان هذا إنذاراً، إشارة دفاعية، بهذه السرعة؟ ولكن لايهم: كنت مستعداً لأن أسلم زمامي لها دون أن أسأل عن نهاية المطاف.

قلت: لا أعرف إلى أي مدى سيستمر حلمي. أتمنى لو يدوم إلى الأبد. لقد تلقاني مصيري تحت صورة الطائر كما يلتقي عاشق ومعشوق. إنني أنتمي لمصيري ولا أنتمي لغيره.

أكدت بلهجة جادة: طالما أن الحلم مصيرك يجب أن تظل مخلصاً له.

غلبني الحزن والرغبة في الموت في تلك اللحظة: أحسست بالدموع ـ منذ أي أبد لم أبكِ ـ دون قدرة لي على مقاومتها تندفع من عينيّ وتغمرني. أشحت بوجهي مبتعداً عنها. مشيت إلى النافذة ورحت أنظر إلى البعيد كالأعمى.

وسمعت صوتها خلفي، هادئاً ومترعاً بالعطف كما يترع الكأس بالخمر.

ـ يا سنكلير. أنت ولد. ومصيرك يحبك. وذات يوم سيكون لك وحدك ـ مثلما تحلم به تماماً ـ إذا ظللت وفياً له.

كنت قد سيطرت على نفسي فالتفتُ إليها مجدداً. ومدت لي يدها.

قالت مبتسمة: أصدقائي قليلون. والخلص بينهم ينادونني فراو إيفا(*). وإذا أحببت يمكنك أن تكون واحداً منهم.

قادتني إلى الباب وفتحته ثم أشارت إلى الحديقة: ستجد ماكس هناك.

وقفت تحت الأشجار الباسقة زائغاً ومهزوزاً دون أن أعرف ما

(*) يجب الانتباه إلى أن الاسم يعني حواء ـ المترجم.

إذا كنت أكثر يقظة مما مضى أم أنني في حلم. كان المطر ينثر رذاذاً لطيفاً من بين الغصون. مشيت ببطء في الحديقة الممتدة على ضفة النهر. وأخيراً عثرت على دميان. كان يقف في بيت صيفي مكشوف، عارياً حتى خصره، وهو يلكم كيساً رملياً معلقاً.

وقفت مدهوشاً، كان دميان يبدو وسيماً جداً بصدره العريض وتقاطيعه الرجولية القوية؛ الذراعان المرفوعتان بعضلات مشدودة، قويتان ومتينتان، والحركات تنبثق لاهية ناعمة من ردفيه وكتفيه ورسغيه. هتفت به:

ـ دميان. ما الذي تفعله هناك؟

ضحك بسعادة:

ـ أتمرن. لقد وعدت الياباني بجولة ملاكمة. إن هذا الصديق الصغير رشيق كالهر وبارع أيضاً. لكنه لن يتمكن من هزيمتي. هناك إهانة صغيرة يجب أن أردها له.

لبس قميصه وسترته. ثم سألني: هل رأيت أمي؟

ـ نعم يا دميان... يا لها من أم رائعة! فراو إيفا! الاسم يلائمها تماماً. إنها مثل أم كونية.

تطلع إلى شكلي متأملاً لفترة ثم قال:

ـ لقد عرفت اسمها إذن. تستطيع أن تفاخر بذلك، أنت أول شخص تخبره باسمها منذ اللقاء الأول.

منذ ذلك اليوم صرت أتردد على البيت مثل ابن أو أخ ـ ولكن أيضاً مثل عاشق. حالما أفتح الباب. وحالما أرى الأشجار الباسقة في الحديقة، أحس بالسعادة والغنى. في الخارج كان هناك الواقع. شوارع وبيوت وأناس ومؤسسات ومكتبات وقاعات محاضرات ـ ولكن هنا في الداخل يوجد الحب؛ هنا تعيش الأسطورة والحلم. ولكننا لم نكن نعيش منعزلين عن العالم الخارجي في أفكارنا وأحاديثنا. كثيراً ما كنا نعيش في غماره، ولكن بصيغة مختلفة تماماً. لم يكن يفصلنا عن غالبية البشر أي حد، بل كان يفصلنا أسلوب في النظر.

وكانت مهمتنا أن نمثّل جزيرة في العالم؛ نموذجاً أولياً ربما، أو على الأقل أفقاً لنمط جديد من الحياة. تعلمت، أنا الذي انعزل طويلاً، الرفقة التي صارت محتملة بين الناس الذين تذوقوا الوحدة الكاملة. لم أعد أتوق إلى موائد المحظوظين وأعياد المبروكين. ولم أعد أحس بالحسد أو يطغى عليّ التوق المرضي عندما أرى أفراح الآخرين الجماعية. وتدريجياً تلقنت سر أولئك الذين يحملون العلامة في وجوههم.

نحن، الذين نحمل العلامة، يمكن للعالم أن يعتبرنا بحق «شواذ»، لا بل ومجانين وحتى خطرين. كنا نعي، أو في طريقنا إلى أن نعي، وكان سعينا موجهاً نحو تحقيق حالة أكثر تكاملاً من الوعي؛ بينما سعي الآخرين بحث موجه إلى ربط الأفكار والمثل والواجبات والحيوات والحظوظ ربطاً وثيقاً بغيرهم في القطيع. هناك، أيضاً، سعي. وهناك، أيضاً، قوة وعظمة. ولكن فيما نحن، أصحاب العلامة، نعتقد أننا نمثل إرادة الطبيعة في التجدد وفي فرادنية المستقبل، كان الآخرون يسعون إلى تأييد الوضع الراهن. والإنسانية ـ التي يحبونها كما نحبها ـ بالنسبة لهم متكاملة ويجب دعمها وحمايتها. أما بالنسبة لنا فالإنسانية هدف بعيد يتحرك نحوه البشر جميعاً، ولايعرف صورتها أحد، ولم تكتب قوانينها في أي مكان.

إضافة إلى فراو إيفا وماكس وأنا، كان باحثون آخرون، بشكل أو بآخر، مرتبطين بالدائرة. وقلة منهم من اتخذوا طرقاً فردانية، وقرروا لأنفسهم، أهدافاً مختلفة وغير مألوفة وتعلقوا بأفكار وواجبات محددة. كان بينهم علماء فلك، وقبلانيون وتلميذ للكونت تولستوي، وكافة أنواع المخلوقات الهشة الخجولة الصغيرة، وأتباع مذاهب جديدة، ومنقطعون للصوفية الهندية، ونباتيون وغيرهم. لم تكن بيننا، عملياً، أية رابطة ذهنية بشكل عام إلا الاحترام الذي يكنه كل منا لمُثل الآخر. والذين كنا نحس نحوهم بقرابة وثيقة هم المعنيون ببحث البشر في الماضي عن الآلهة والمثل ـ دراساتهم كانت كثيراً ما تذكرني بيستوريوس. كانوا يجلبون معهم كتباً ويترجمون بصوت مرتفع نصوصاً عن لغات قديمة، ويجعلوننا نرى صوراً لرموز وطقوس

قديمة ويعلموننا أن نرى كيف أن المجموعة الكاملة لمثل الإنسانية تشتمل على الأحلام التي تنبثق من اللاوعي، والأحلام التي سعت من خلالها الإنسانية إلى جوهر طاقات المستقبل. وهكذا تعرفنا على كتلة الآلهة المدهشة ذات الألف-رأس منذ ما قبل التاريخ إلى فجر الهداية المسيحية. استمعنا إلى عقائد الأولياء المعتزلين، وإلى التحولات التي تمر بها الأديان عند انتقالها من إنسان إلى آخر. وبهذا، ومن كل شيء جمعناه بهذه الطريقة، اكتسبنا فهماً نقدياً لعصرنا ولأوروبا المعاصرة: بجهود مكثفة وكبيرة تمّ خلق أسلحة جديدة للبشر ولكن النهاية كانت عزلة عميقة وفظيعة للروح. لقد قهرت أوروبا العالم كله من أجل أن تخسر روحها فقط.

كما كانت دائرتنا تضم مؤمنين، متحدرين من آمال معينة وعقائد شافية. كان هناك بوذيون يسعون إلى هدي أوروبا، وتلميذ لتولستوي كان يدعو إلى عدم مقاومة الشر، إضافة إلى مذاهب أخرى. وكنا، نحن الذين في الدائرة الوسطى، نستمع دون أن نتقبل أياً من هذه التعاليم ونكتفي بالنظر إليها كاستعارات تشبيهية. نحن، الذين كنا نحمل العلامة، لم نكن نحس بأي قلق حول الشكل الذي سيأخذه المستقبل. هذه العقائد والتعاليم، كلها، كانت تبدو لنا ميتة وعديمة النفع. الواجب الوحيد والمصير الوحيد، اللذان تقبلناهما، هما أن على كل منا أن يصير نفسه تماماً، وأن يكون مخلصاً إخلاصاً شديداً للبذرة النشطة التي زرعتها الطبيعة فيه. وعندما يعيش نموها لن يدهشه قدوم أي شيء مجهول.

وعلى الرغم من أننا ربما كنا عاجزين عن التعبير عن الأمر؛ إلا أننا، جميعاً، كنا نشعر بشكل واضح أن ميلاداً جديداً وسط انهيار هذا العالم القائم أمر وشيك وتكاد ملامحه أن تبين. وكثيراً ما كان دميان يقول لي: «ما سيأتي أمر يفوق التصور. روح أوروبا وحش ظل مقيداً ردحاً طويلاً من الزمن. وحين يتحرر هذا الوحش لن تكون حركاته الأولى لطيفة. غير أن الوسائل لا أهمية لها طالما أن الروح قد تعرفت على حاجاتها الحقيقية بعد أن ظلت طويلاً معاقة ومخدرة، وعندها سيأتي يومنا. وعندها ستظهر الحاجة إلينا. ليس كقادة أو مشرعين ـ

إذ لن نكون موجودين، لكي نعرف القوانين الجديدة ـ بل كأناس راغبين، أناس مستعدين للتقدم وهم على أهبة الاستعداد حيثما احتاج إليهم المصير. إن الناس جميعاً مستعدون لتحقيق المعجزات إذا أحسوا أن مثلهم مهددة. ولكن لا أحد يكون مستعداً عندما يشعرون بمثل أعلى جديد، جديد وربما خطر ومشؤوم. والقلة التي ستكون مستعدة في ذلك الحين والتي ستتقدم هي نحن. ولهذا نحن علينا علامة ـ مثلما كان قابيل ـ وذلك من أجل إثارة الخوف والكراهية ومن أجل إخراج الناس من عطالتهم المطمئنة إلى مواقع أكثر خطراً. وجميع أولئك الذين لهم تأثيرهم على مجرى تاريخ البشر، جميعهم بلا استثناء، كانوا قادرين ومؤثرين لمجرد أنهم كانوا مستعدين لقبول المحتوم. وهذا ينطبق على موسى وبوذا، وعلى نابليون وبسمارك. والحركة المعينة التي يخدمها المرء، والقطب الذي يوجه عنه المرء، من الأمور التي تقع خارج إطار اختياره. ولو أن بسمارك تفهم الديموقراطيين الاجتماعيين ووجد صيغة معتدلة معهم لكان مجرد رجل بارع ولكن ما كان ليصير رجل قدر. والأمر ذاته ينطبق على نابليون وقيصر ولويولا(*) وجميع رجالات هذه الفئة. عليك دائماً أن تفكر في هذه الأمور ضمن منحى تطوري وتاريخي، عندما قام اضطرام سطح الأرض بطرح مخلوقات البحر على اليابسة ومخلوقات البر في البحر فإن عينات من الجماعات المختلفة التي كانت على استعداد لمواجهة مصيرها والذين حققوا الجديد وما لا سابق له؛ هؤلاء بلجوئهم إلى التأقلم البيولوجي الجديد تمكنوا من إنقاذ أجناسهم من الدمار. ونحن لانعرف ما إذا كانوا هم أنفسهم النماذج التي ميزت نفسها في الماضي عن أقرانها بكونها محافظة وداعية للإبقاء على الأمور كما هي أم أنهم الشواذ والثوريون؛ لكننا نعرف بالتأكيد أنهم كانوا مستعدين ولذا فإنهم استطاعوا أن يقودوا جماعاتهم إلى مراحل جديدة من التطور. لهذا نريد أن نكون مستعدين».

كثيراً ما كانت فراو إيفا تحضر هذه المحادثات إلا أنها لم تكن

(*) القديس أغناطيوس لويولا: من أهم المصلحين الكاثوليك في القرن السادس عشر، وهو مؤسس الجزويت.

تشارك بالطريقة ذاتها. كانت مستمعة، ومليئة بالثقة والتفهم، وصدى لكل منا وهو يشرح أفكاره. وكان يبدو وكأن التفكير كله ينطلق منها ويعود، في النهاية، إليها، وكانت سعادتي هي في الجلوس إلى جانبها وسماع صوتها بين حينٍ وآخر والمشاركة في الجو الروحاني الغني الذي يحيط بها.

كانت تحس فوراً بأي تغيير، بأية تعاسة، وأي تطور جديد يحدث لي. حتى تهيأ لي أن أحلامي في الليل هي التي توحي بها. وكثيراً ما كنت أروي لها هذه الأحلام فتراها مفهومة وطبيعية؛ لم يكن فيها أي شيء غير مألوف مما لا تستطيع استيعابه. وكانت أحلامي، لفترة، استعادة لنماذج من أحاديثنا في النهار. وكنت أحلم بأن العالم كله تدب فيه الفوضى وأنني، وأحياناً مع دميان، أنتظر اللحظة العظيمة. ولقد ظل وجه المصير غائماً. إلا أنه بشكل أو بآخر كان يحمل ملامح من فراو إيفا: واختيارها أو رفضها له هو القدر.

كانت، أحياناً، تقول مبتسمة: «حلمك ناقص يا سنكلير، لقد أهملت أفضل جانب فيه». وعندها كنت أتذكر الجانب الذي أهملته دون أن أفهم كيف حدث لي أن نسيته.

وأكون، أحياناً، غير راض عن نفسي ورغباتي تعذبني، وأحس بأنني لم أعد قادراً على احتمال بقائها قربي دون أخذها بين ذراعي. وكانت تحس بذلك أيضاً وفور حدوثه. ذات مرة غبت عدة أيام ثم عدت مرتبكاً فانتحت بي جانباً وقالت: «يجب أن لاتستسلم للرغبات التي لاتؤمن بها. أنا أعرف ما ترغب فيه. ولكن عليك إما أن تتمكن من التخلي عن هذه الرغبات أو أن ترى نفسك مبرراً تماماً عند تحقيقها. وعندما تتمكن من صياغة طلبك بحيث تكون واثقاً من تحقيقه فإن التحقيق سيحدث. ولكنك، في الوقت الحاضر، متأرجح بين الرغبة ورفضها. ولذا فأنت تعيش الخوف الدائم. يجب التغلب على هذا كله. واسمع هذه القصة».

ثم حكت لي عن شاب أحب كوكباً. كان يقف قرب البحر ويمد ذراعيه ليصلي للكوكب. وكان يحلم به ويوجه أفكاره كلها باتجاهه. لكنه كان يعرف، أو يحس أنه يعرف، أن النجم لايمكن عناقه مثل

البشر. وكان يعتبر أن قدره هو أن يحب جسداً سماوياً دون أي أمل في تحقيق هذا الحب. ومن هذه البصيرة أقام فلسفة كاملة لنكران الذات وللمعاناة الصامتة المخلصة التي طورته وطهرته. إلا أن أحلامه، كلها، كانت تصل إلى الكوكب. وذات يوم كان يقف على المنحدر الصخري الشاهق المطل على البحر ليلاً وراح يحدق إلى الكوكب وهو يشتعل حباً له. وفي ذروة أشواقه قفز في الفراغ نحو الكوكب. ولكن في لحظة القفز التمعت في ذهنه فكرة: «إنه مستحيل». فسقط على الشاطئ محطماً. لم يفهم كيف عليه أن يحب. ولو أنه في لحظة القفز تمتع بإيمان قوي بإمكانية تحقيق حبه لحلق في الأعالي ولاتّحد مع النجم.

وأضافت: «الحب يجب أن لايتضرع أو يطلب. يجب أن تكون لدى الحب من القوة ما يجعله واثقاً من نفسه ومكتفياً بها. وعندها لايكتفي بأن يكون منجذباً بل يصبح جذاباً. وحبك يا سنكلير منجذب إليّ. وحالما يبدأ في جذبي فإنني سوف آتي. أنا لن أجعل من نفسي منحة بل يجب أن أكتسب».

وفي مرة أخرى حكت لي قصة مختلفة عن عاشق لم يستجب لحبه. فتقوقع على نفسه نهائياً وهو يعتقد أن حبه سوف يستهلكه. صار العالم بالنسبة له مفقوداً ومنسياً. لم يعد يلحظ السماء الزرقاء والغابات الخضراء، ولم يعد يسمع خرير المياه. صُمّت أذناه عن نغمات القيثارة: لم يعد هناك ما يثير اهتمامه. وصار فقيراً وتعيساً. لكن حبه ظل يزداد. وكان يود لو أنه يموت أو يتحطم ولايتخلى عن رغبته في امتلاك تلك المرأة الجميلة. بعد ذلك أحس أن عاطفته قد التهمت كل ما في أعماقه. وصارت قوية وجذابة إلى درجة أن المرأة الجميلة كان لابد لها أن تتبعها. جاءت إليه وكان يقف ماداً ذراعيه مستعداً لشدها إليه وفيما كانت واقفة أمامه تحولت تحولاً كاملاً، وبرهبة كبيرة راح يحس ويرى أنه يستعيد كل ما كان قد خسره في الماضي. وقفت أمامه مستسلمة له فجاءت إليه السماء والغابة والجدول زاهية بألوان جديدة لامعة. وكلها له. وكلها تحدثه بلغته هو. وهكذا بدل الظفر بالمرأة وحدها استطاع أن يعانق العالم كله. وكل نجم في السماء كان يشع في أعماقه ويتألق غبطة في روحه. لقد أحب نفسه ووجدها. ولكن معظم الناس يحبون فيخسرون أنفسهم.

صار حبي لفراو إيفا يملأ حياتي كلها. إلا أنه، في كل يوم، كان يظهر نفسه بمظهر مختلف. كنت أحس أحياناً بالثقة في أنها ليست هي، كشخص، من أنجذب إليه وأتوق إليه بكياني كله بل إنها غير موجودة إلا كمجاز لنفسيْ الداخلية، مجاز غرضه الوحيد أن يقودني أعمق فأعمق داخل نفسي. وكانت الأشياء التي تقولها تبدو كإجابات من لاوعيي على الأسئلة التي تعذبني. وتمر لحظات أخرى أكون فيها جالساً إلى جانبها والرغبة الجسدية تحرقني فأقبل الأشياء التي تلمسها. وشيئاً فشيئاً بدأ الحب الجسدي والروحي، الواقع والرمز، يتمازجان. ثم يحدث أن أكون في غرفتي بالبيت أفكر فيها في استرخاء ودود فأحس بيدها في يدي وبشفتيها تلمسان شفتي. أو أكون في بيتها وأتطلع إلى وجهها وأنا أسمع صوتها فلا أعرف ما إذا كانت حلماً أم حقيقة. وبدأت أحدس بالكيفية التي يتملك بها المرء حباً بشكل دائم وإلى الأبد. وتأتيني ومضة إشراق وأنا أقرأ كتاباً - ويكون لهذا طعم قبلة إيفا نفسه. كانت تربت على شعري وتبتسم لي بمحبة. وكان هذا يبدو لي مثل خطوة جديدة نحو نفسي. كل ما هو مهم بالنسبة لي ومليء بالقدر كان يأخذ شكلها. كانت تستطيع أن تحول نفسها إلى كل فكرة من أفكاري. وكل فكرة من أفكاري كان تتجسد في هيئتها.

بدأت أقلق مع اقتراب عطلة عيد الميلاد - كان يجب أن أقضيها في بيت والديّ - لأنه سيكون من المؤلم جداً لي أن أبتعد عن فراو إيفا أسبوعين كاملين. ولكن الأمور لم تكن كذلك. كان من المفرح أن أتواجد في البيت وأن أفكر فيها. وحين عدت إلى (هـ) انتظرت يومين قبل الذهاب لرؤيتها وكأنني أريد أن أستمتع بهذا الأمان. بهذا الاستقلال عن وجودها المادي. حلمت أحلاماً أيضاً تحقق فيها اتحادي معها عبر أفعال رمزية جديدة. كانت هي المحيط الذي أتدفق فيه. كانت هي النجم وأنا النجم الآخر الساعي إليه وكل منا يدور حول الآخر. وقد حكيت لها هذا الحلم عندما زرتها أول مرة. فقالت بهدوء: هذا حلم جميل. دعه يتحقق.

ثم جاء يوم في مطلع الربيع لم أستطع طوال حياتي أن أنساه.

دخلتُ الردهة الأمامية وكانت هناك نافذة مفتوحة يساعد تيار من الهواء يتدفق منها على نقل أريج الزنبق المفعم. ولما لم يكن هناك أحد صعدت إلى مكتب ماكس دميان. نقرت نقرة خفيفة على الباب، كعادتي، ثم دخلت دون أن أنتظر جواباً.

كانت الغرفة معتمة، والستائر، كلها، مسدلة. وكان الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة مفتوحاً. وفي هذه الغرفة أقام ماكس مختبراً كيماوياً. ومنها كان يأتي الضوء الوحيد. ظننت أنه ليس هناك أحد ففتحت إحدى الستائر.

ورأيت ماكس مسترخياً على كرسي صغير قرب النافذة ذات الستائر المسدلة. وقد بدا متغيراً جداً. فخطر لي: لقد رأيت هذا من قبل! كانت يداه متدليتين بليونة؛ كفاه في حضنه. ورأسه محني إلى الأمام قليلاً، وعيناه، على الرغم من أنهما مفتوحتان، إلا أنهما كانتا غير مبصرتين وميتتين، وفي بؤبؤ إحدى عينيه كما لو أنه في قطعة من الزجاج كان شعاع من الضوء يهز الحدقة فيغلقها ويفتحها ثم يغلقها ويفتحها. كان الوجه الشاحب غارقاً في ذاته دون أي تعبير إلا سكونه الراسخ. كان يشبه قناع حيوان مغرق في القدم على مدخل معبد. ولم يبد عليه أنه يتنفس.

هيمن عليّ الذعر فخرجت من الغرفة ونزلت الدرج. وعند مدخل الردهة التقيت بفراو إيفا، وكانت شاحبة ومنهكة الأمر الذي لم أشاهدها عليه من قبل. في تلك اللحظة مر خيال على النافذة وسرعان ما غاب الوهج الأبيض الصادر عن الشمس.

همست متعجلاً: كنت في غرفة ماكس. هل حدث شيء؟ إنه إما أن يكون نائماً أو غارقاً في نفسه. لا أعرف. لقد رأيته في هذه الحالة مرة من قبل.

وسألتني بسرعة: لم توقظه. أليس كذلك؟

- لا. إنه لم يسمعني. لقد غادرت الغرفة فوراً. قولي لي ما المسألة؟ ما باله؟

مسحت بظاهر كفها على حاجبيها وقالت: لاتقلق يا سنكلير. لن يحدث له شيء. لقد انسحب. وسينتهي الأمر بسرعة.

نهضت وخرجت إلى الحديقة - على الرغم من أن المطر كان قد بدأ بالهطول. وشعرت أنها لاتريد أن أرافقها ولذا رحت أتمشى في الردهة، وأستنشق عبير الزنبق المذهل، وأتطلع إلى صورة طائري المعلقة فوق المدخل وأتخفس الجو الخانق الذي كان يملأ البيت هذا الصباح. ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

لم تغب فراو إيفا طويلاً. وكانت قطرات المطر عالقة بشعرها الأسود. جلست في كرسيها. بدا أنها قلقة. تقدمت منها وانحنيت فوق رأسها والتقطت المطر عن شعرها بشفتي. كانت عيناها براقتين وهادئتين ولكن كان لقطرات المطر طعم الدموع.

سألتها هامساً: هل أذهب وأطمئن عليه؟

فابتسمت بضعف: «لاتكن طفلاً يا سنكلير» أنَبتني بصوت مرتفع وكأنها تريد أن تحطم هاجساً في أعماق نفسها. «اذهب الآن وعد في ما بعد. لا أستطيع التحدث إليك الآن».

بين المشي والركض غادرت البيت والمدينة متجهاً إلى الجبال. كان المطر الناعم يهمي على وجهي والغيوم المنخفضة تمضي وكأنها مثقلة بالخوف. أما على الأرض فلا يكاد الهواء يتحرك بينما في المناطق العليا بدا وكأن عاصفة تهب. وأكثر من مرة كانت الشمس الشاحبة تخترق، لوهلة، الشقوق الموحشة في الغيوم الرمادية الفولاذية.

ثم عبرت السماء غيمة صفراء متراخية واصطدمت بالغيوم الرمادية الأخرى. وخلال ثوان قامت الريح بتصميم شكل من هذه الكتلة الصفراء والزرقاء الرمادية، طائر جبال حرر نفسه منطلقاً من تلك الهيولى الزرقاء الفولاذية وانطلق في الأجواء بخفقات كبيرة من جناحيه. وعندها صارت العاصفة مسموعة بوضوح وراح المطر ينهمر مصحوباً بالبرد. وفرقعت زمجرة خاطفة مخيفة وغير معقولة على الأرض التي يزخ المطر فوقها. وبعدها فوراً تألق ضوء الشمس، على الجبال القريبة كان الثلج الشاحب يشع مزرقاً، وموحياً فوق الغابة الرمادية.

بعد ساعات حين عدت مبللاً مشعثاً فتح لي دميان بنفسه.

صعدت معه إلى غرفته. كان هناك أنبوب غازي مشتعل في مختبره، وكانت الأوراق مبعثرة على الأرض، من الواضح أنه كان يشتغل.

دعاني قائلاً: اجلس لابد أنك منهك. لقد كان الطقس رهيباً. يستطيع المرء أن يرى بوضوح أنك كنت في الخارج. سيكون الشاي جاهزاً فوراً.

بدأت بتردد: هناك شيء ما اليوم. لايمكن أن يكون مجرد عاصفة رعدية. تطلع إليّ مستفهماً: هل رأيت شيئاً؟

ـ نعم. رأيت صورة في الغيوم وكانت، لوهلة، واضحة جداً.

ـ أية صورة؟

ـ صورة طائر.

ـ صورة باشق؟ طائر أحلامك؟

ـ نعم، إنه باشقي. كان أصفر وكبيراً جداً وقد انطلق وسط الغيوم السوداء والمزرقة. وأطلق دميان تنهيدة عميقة.

قرع الباب وأدخل الخادم العجوز الشاي.

ـ تفضل يا سنكلير. لا أظن أنك رأيت الطائر بالمصادفة فقط.

ـ بالمصادفة؟ وهل يرى المرء أموراً كهذه بالمصادفة؟

ـ أبداً. لايرى بالمصادفة. للطائر أهميته. أتعرف ما هي؟

ـ لا. ولكنني أحس أنه يمثل حدثاً جللاً، تحركاً نحو جزء من المصير. وأظن أنه يعنينا جميعاً. كان يتمشى جيئة وذهاباً وهو مستثار. وصرخ:

ـ تحرك نحو جزء من المصير! لقد حلمت الليلة الفائتة بالشيء ذاته. وأمي كان لديها حدس يوم أمس يحمل الرسالة ذاتها. حلمت إنني أتسلق سلماً مسنوداً على جذع شجرة أو برج. وحين وصلت أعلاه رأيت السهل كله مشتعلاً ـ سهل كبير يحتوي على مدن وقرى لاتحصى.

لا أستطيع الآن أن أحكي لك الحلم كله. كل شيء فيه مايزال مشوشاً بعض الشيء.

ـ أوتعتقد أن الحلم يعنيك شخصياً؟

ـ طبعاً. ما من أحد يحلم حلماً إلا ويعنيه شخصياً. ولكنه لايعنيني وحدي، معك حق. إنني أميز بدقة شديدة بين الأحلام التي تكشف عن تحركات داخل روحي وبين غيرها من الأحلام الأخرى النادرة التي يطرح فيها مصير البشرية كلها نفسه. نادراً ما رأيت أحلاماً كهذه، ولم يسبق لي أبداً أن رأيت حلماً مما يمكن أن أعتبره نبوءة تحققت. إن التفسيرات مشكوك فيها جداً. لكنني أعرف، واثقاً، أنني حلمت بشيء لايعنيني وحدي. فهذا الحلم مرتبط بالأحلام الأخرى، الأحلام السابقة التي رأيتها، وهذا الحلم تتمة لها. وهذه، يا سنكلير، هي الأحلام التي تعبئني بالإنذارات التي حدثتك عنها. أنا وأنت نعرف أن العالم مهترئ ولكن ليس هذا بالسبب الذي يدعو إلى التنبؤ بانهياره الفوري أو بشيء من هذا القبيل. غير أنني منذ عدة سنوات رأيت أحلاماً استنتجت منها، أو جعلتني أشعر، أن انهيار العالم القديم أمر صار وشيك الوقوع. في البدء كانت هذه الأحلام تلميحات ضعيفة وبعيدة ولكنها تدريجياً بدأت تصير أقوى وأكثر وضوحاً. وما أزال لا أعرف إلا أن «شيئاً ما» سيحدث وعلى نطاق واسع. وهو شيء رهيب أنا نفسي سأكون معنياً به. إننا سنشارك في هذا الحدث الذي ناقشناه كثيراً. العالم يريد أن يجدد نفسه. إن رائحة الموت تملأ الهواء. إذ لاشيء يمكن أن يولد قبل أن يموت أولاً. لكنه أكثر رهبة مما كنت أظن.

تطلعت إليه مذعوراً، ثم سألته خجلاً:

ـ ألا تستطيع أن تحكي لي بقية حلمك!

هز رأسه: لا.

وفتح الباب لتدخل منه فراو إيفا.

ـ آمل أنكما لستما حزينين.

كانت منتعشة وقد زالت عنها معالم التعب كلها. ابتسم لها دميان فتقدمت إلينا مثلما تتقدم أم من ولدين خائفين.

8

النهاية تبتدئ

أقنعت والديَّ بالسماح لي بالبقاء في (هـ.) في العطلة الصيفية. كنت، وأصدقائي، نقضي معظم وقتنا في الحديقة المجاورة للنهر بدلاً من البقاء في البيت. وكان الياباني الذي هُزم في الملاكمة قد رحل، وذهب أيضاً تلميذ تولستوي. وجلب دميان حصاناً وصار يذهب في رحلات ركوب طويلة يوماً بعد آخر. ولذا فكثيراً ما كنت أبقى وحدي مع أمه.

كانت تمر عليّ أوقات أندهش فيها من الهدوء الذي يخيم على حياتي. كنت قد تعودت منذ وقت طويل على البقاء وحيداً، وعلى العيش منكراً لذاتي، وعلى مقارعة المتاعب المرهقة بعنف، بحيث أن هذه الأشهر في (هـ.) بدت لي وكأنني في جزيرة أحلام سحرية سمح لي أن أعيش عليها حياة مريحة بديعة وسط عالم جميل وممتع. وكان لديّ حدس بأن هذا هو الطعم المسبق للعالم الأجمل والأسمى الذي تكهنا به طويلاً، ولكن هذه السعادة كانت قادرة في أية لحظة على توليد تعاسة عميقة لديّ لأنني كنت أعرف أنها سعادة لن تدوم. لم يكن مقدراً لي أن أعرف الامتلاء والراحة، فقد كنت أحتاج إلى تحريض السرعة المعذبة. وكنت أشعر أنني، ذات يوم، لابد سأستيقظ من هذه الصورة المحبوبة المرتبطة بالجمال والسكون، وأصبح وحيداً، مرة أخرى، في عالم بارد حيث لايكون لي إلا العزلة والصراع - لاسلام ولا استرخاء ولاحياة رغيدة أيضاً.

وفي تلك اللحظات كنت أستكين، بفرح مضاعف، قرب فراو إيفا وأنا سعيد لأن قدري مازال يحتوي على هذه الملامح الجميلة أو الوديعة.

ومرت أسابيع الصيف بسرعة ودون أحداث وكادت العطلة تنتهي وهذا يعني اقتراب الوقت الذي سأغادر فيه. لم أجرؤ على التفكير في الأمر فظللت متعلقاً بكل يوم جميل مثلما تتعلق الفراشة بالوردة المعسّلة. كانت هذه أيامي السعيدة، وأول تحقيق لشيء في حياتي، وقبولي في تلك الدائرة الودودة المنتقاة - ما الذي سيأتي لاحقاً؟ سأخوض معاركي من جديد، وأعاني من أشواقي القديمة وأحلم أحلامي... وأصير وحيداً.

وذات يوم انبعثت فيَّ توجساتي بقوة جعلت حبي لفراو إيفا يتوهج مؤلماً في أعماقي، يا إلهي كم اقترب فراقي عنها، حيث لن أراها بعد ذلك ولن أسمع خطواتها الواثقة العزيزة في البيت، ولن أجد زهورها على طاولتي. وما الذي حققته؟ لقد حلمت وعشت في دعة الأحلام والرضا، بدل الفوز بها، بدل السعي لشدها إليّ إلى الأبد. عاد إليّ كل ما قالته لي عن الحب الحقيقي. مئة تحذير رقيق، ومثلها من الإغراءات اللطيفة، والوعود ربما... ما الذي فعلته بها كلها؟ لاشيء. لاشيء على الإطلاق.

ذهبت إلى وسط غرفتي ووقفت ساكناً في محاولة لتركيز وعيي كله على فراو إيفا مستدعياً كل قوة في روحي لكي أجعلها تشعر بحبي ولكي أشدها إليّ. لابد أن تأتي. لابد أن تشتاق إلى عناقي. وقبلتي يجب أن ترتعش بنهم على شفتيها الناضجتين.

وقفت وركزت طاقتي كلها إلى أن شعرت بالبرد يزحف صاعداً من أصابع قدمي ويدي. وشعرت بالقوة تشع مني. وللحظات شعرت بشيء يتقلص في داخلي، شيء ما براق وبارد له ملمس الكريستال في قلبي - وعرفت أنه «ذاتي». وصعدت الرعشة الباردة إلى صدري.

بعد التخلص من هذا التوتر الرهيب،شعرت أن شيئاً ما سيحدث، لقد كنت مرهقاً جسدياً ولكنني كنت مستعداً لمشاهدة إيفا تخطو إلى الغرفة، وهي مشعة ونشوانة.

كان من الممكن سماع وقع الحوافر وهي تقترب في الشارع. كانت قريبة ورنانة ثم توقفت بغتة. قفزت إلى النافذة فرأيت دميان يترجل، ركضت إليه.

ـ ما الأمر يا دميان؟

لم يهتم لكلماتي. كان شاحباً جداً والعرق يتصبب على خديه. ربط رسن جواده المتعرق بسياج الحديقة وأمسكني بذراعي ثم سار معي نحو الشارع.

ـ هل سمعت؟

لم أكن قد سمعت بشيء.

ضغط دميان على ذراعي ثم حول وجهه إليّ وبنظرة كئيبة وحنون في وجهه قال:

ـ نعم. بدأ الأمر. سمعت عن المشاكل مع روسيا.

ـ ماذا؟ أهي الحرب؟

تكلم بصوت منخفض جداً على الرغم من أن أحداً لم يكن إلى جانبنا:

ـ لم تعلن الحرب بعد. ولكن ستكون هناك حرب. ثق بكلامي. لم أشأ أن أقلقك لكنني رأيت نذراً ثلاث مرات منذ ذلك الحين. الأمر إذن ليس نهاية العالم، ليس هزة أرضية ليس ثورة بل هي الحرب. سترى أي حدث مثير سيكون. سيحبه الناس. منذ الآن لم يعد في وسعهم انتظار أن يبدأ القتل ـ إن حياتهم تافهة بهذا المقدار. ولكنك سترى، يا سنكلير، إن هذه هي البداية فقط. قد تكون حرباً كبيرة جداً، على مستوى هائل. ولكنها، مع ذلك، ستكون مجرد بداية. لقد بدأ العالم الجديد. وسيكون هذا العالم الجديد رهيباً بالنسبة لأولئك المتعلقين بالقديم. ما الذي ستفعله؟

صعقت. كان الأمر بالنسبة لي غريباً جداً وغير متوقع.

ـ لاأعرف. هل تعرف أنت؟

هزّ كتفيه.

ـ سوف أُستدعى حالما يصدر قرار التعبئة. أنا ملازم.

ـ أنت ضابط! لم تكن لديّ فكرة.

ـ نعم. تلك كانت إحدى صيغ التسوية التي لجأت إليها. أنت تعرف أنني لا أحب لفت الانتباه إلى نفسي إلى درجة أنني وصلت إلى الطرف الأقصى الآخر لمجرد إعطاء الانطباع الصحيح. اعتقد أنني سأكون في الجبهة خلال أسبوع.

ـ يا إلهي.

ـ لاداعي للعواطف. ليس لهواً بالطبع توجيه الأمر إلى الناس لقتل غيرهم. لكن هذا أمر عرضي. إن كلاً منا سيكون عرضة لسلسلة الأحداث وأنت أيضاً سوف تنجرف بالتأكيد.

ـ وماذا سيحدث لأمّك يا دميان؟

الآن فقط تحولت أفكاري إلى ماكان قد حدث قبل ربع ساعة. كم تغير العالم في هذه الفترة البسيطة! كنت قد استدعيت قوتي كلها لاستحضار أحلى الصور، والآن يتطلع إليّ قدري بقناع متوعد رهيب.

ـ أمي؟ ليس علينا أن نقلق بشأنها! ستكون في أمان أكثر من أي شخص آخر في العالم. أتحبها إلى هذه الدرجة؟

ـ ألم تكن تعرف؟

ضحك ضحكة خفيفة مستريحة.

ـ طبعاً كنت أعرف. بغتة أرسلت إلي قائلة إن عليَ أن أراك. لقد أخبرتها لتوي عن أخبار روسيا.

عدنا وتبادلنا عدة كلمات أخرى. فك دميان رسن جواده وامتطاه.

حين صعدت إلى غرفتي أدركت كم أن أخبار دميان، وأكثر من ذلك التوترات السابقة، قد أرهقتني. ولكن فراو إيفا قد سمعتني! وصلت أفكاري إلى قلبها. كان من الممكن أن تأتي بنفسها ـ لو... كم كان هذا كله غريباً، والأهم من ذلك كم هو جميل. والآن من المتوقع اندلاع الحرب. سوف يبدأ ما كنا قد تحدثنا عنه كثيراً. كان دميان قد عرف الكثير مسبقاً. وكم هو غريب أن تيار العالم لم يعد يتجاوزنا، وأنه سرعان ما ستأتي اللحظة التي سيحتاج إلينا العالم فيها، وسيحاول أن يتحول. كان دميان على حق، لايمكن أن يكون الإنسان عاطفياً تجاه

أمر كهذا. الأمر البارز الوحيد هو أنني سأشارك آخرين في الجانب الشخصي من قدري، سأشارك العالم كله. حسن فليكن.

كنت على أتم الاستعداد. وحين مشيت في البلدة مساء كانت كل زاوية شارع مليئة بالطنين. وفي كل مكان كلمة «حرب».

ذهبت إلى مسكن فراو إيفا، تناولنا العشاء في المنزل الصيفي. كنت الضيف الوحيد. ولم يقل أحد كلمة واحدة عن الحرب. في النهاية، وقبل مغادرتي بقليل، قالت فراو إيفا: «عزيزي سنكلير. لقد استدعيتني اليوم. وأنت تعرف لِمَ لَمْ آتِ بنفسي. ولكن لاتنسَ: أنك تعرف النداء الآن. وكلما احتجت أحداً ممن يحملون العلامة تستطيع أن تستنجد بي».

نهضت وتقدمتني في ضوء الحديقة الخافت. وراحت تنقل خطواتها بين الأشجار بطولها وأبهتها.

هاأنذا أصل إلى نهاية قصتي. لقد مرّ كل شيء بسرعة منذ ذلك الحين. سرعان ما جاءت الحرب وغادرنا دميان ببذلته الغريبة غير المألوفة. ورافقت أمه إلى البيت، ولم يمر وقت طويل حتى ودعتها بدوري. قبلتني على فمي وشدتني قليلاً إلى صدرها. وراحت عيناها الكبيرتان تتألقان في عينيَّ وهما قريبتان وثابتتان.

يبدو أن الناس كلهم قد صاروا أخوة - بين عشية وضحاها. صاروا يتحدثون عن «الوطن الأم» وعن «الشرف» ولكن ما كان يختفي خلف هذا الكلام هو قدرهم الذي رأوا، كلهم، وجهه السافر للحظة عابرة وسريعة. راح الشبان يغادرون ثكناتهم وينحشرون في قطارات، وعلى وجوه كثيرة كنت أرى علامة - ليست علامتنا - بل علامة جميلة وكريمة على الرغم من أنها تعني الحب والموت. وأنا، أيضاً، عانقني أناس لم يسبق لي أن رأيتهم من قبل، وكنت أفهم هذه الإشارة وأستجيب لها. إن النشوة تجعلهم يفعلون ذلك وليس الشوق لمصيرهم، ولكن هذه النشوة قدسية، فهي نتيجة لكونهم جميعاً قد تطلعوا بتلك النظرة السريعة المقلقة والرهيبة إلى عيني قدرهم.

قبيل الشتاء أُرسلت إلى الجبهة. وعلى الرغم من الإثارة في كوني تحت النار للمرة الأولى، فإن كل شيء كان مزعجاً لي. ذات يوم صرفت

الكثير من التفكير حول سبب عجز الناس غالباً عن أن يعيشوا من أجل مثل أعلى. أما الآن فقد رأيت أن الكثيرين، بل الناس كلهم، قادرون على أن يموتوا من أجل مثل أعلى. غير أنه لايمكن أن يكون مثلاً أعلى شخصياً ومنتقى بحرية؛ بل هو ذلك الذي يُقبل بالمشاركة.

ومع مرور الوقت أدركت أنني كنت قد أسأت تقدير قيمة هؤلاء الناس. وعلى الرغم من أنّ الخطر المشترك والعمل المشترك كانا يصنعان منهم كتلة متراصة إلا أنني ظللت أرى كثيرين يتقدمون لتلبية إرادة القدر باعتزاز كبير. وكثيرون، كثيرون جداً، ليس فقط في لحظة الهجوم بل في كل لحظة من لحظات النهار، كانت لديهم في عيونهم نظرة نائية مصممة وإلى حد ما مأخوذة لاتعرف شيئاً عن الأهداف وتشير إلى استسلام كامل لما لايصدق. ومهما كان ما يفكرون أو يؤمنون به فقد كانوا دائماً مستعدين، قابلين للاستخدام. إنهم الطين الذي يمكن تشكيل المستقبل منه. وكلما زاد العالم، ومن رؤية وحيدة الجانب، تركيزه على الحرب والبطولة، على الشرف والمثل الأخرى القديمة؛ صارت أية همسة صادرة عن الإنسانية الأصيلة أكثر نأياً ولامعقولية ـ وكان هذا كله مجرد سطح؛ مثلما أن السؤال عن أهداف الحرب الخارجية والسياسية يظل سطحياً. ولكن في الأعماق الدنيا كان هناك ما يتشكّل؛ شيء قريب من إنسانية جديدة. فلقد كنت أرى كثيرين ـ وكثيرون ماتوا إلى جانبي ـ ممن بدأوا يشعرون بحدة أن الكراهية والحماس، والمذابح والإبادة ليست مرتبطة بهذه الأهداف. لا. هذه الأهداف والغايات كانت تصادفية تماماً. وأكثر المشاعر بدائية، وحتى أكثرها وحشية، لم تكن موجهة ضد العدو. كانت مهمتهم الدموية مجرد فيض من الروح، الروح المنقسمة على نفسها، والتي تملأ أعطافهم بشهوة النقمة والقتل، والإبادة والموت، لعلهم يولدون من جديد.

ذات ليلة في أوائل الربيع كنت أقف حارساً أمام مزرعة كنا قد احتللناها. وكانت ريح قلقة تهب بشكل متقطع، وفي السماء الفلمنكية كانت جيوش الغيوم تتقاطر، ووراءها في مكان ما كان هناك شبح قمر. طوال النهار كنت أحس بالانزعاج ـ كان هناك شيء ما يقلقني. والآن في موقع حراستي المعتم رحت أستذكر بحماس صور حياتي

وأفكر في فراو إيفا ودميان. كنت أقف مستنداً إلى شجرة حور وأنا أحدق إلى الغيوم المتدفقة التي سرعان ما تجسدت نتفها ذات الضوء الذاوي بغموض في هيئة سلسلة من الصور المتداخلة في دوامة. ومن ضعف نبضي الغريب، وانعدام حساسية بشرتي تجاه الريح والمطر، وحالة وعيي الحاد حدست بوجود رئيس إلى جانبي.

كان من الممكن رؤية مدينة ضخمة بين الغيوم يتدفق منها ملايين من البشر في حشود على منبسط شاسع. ووسطهم كان شخص عظيم ذو هيئة إلهية كبيرة مثل سلسلة جبال. إنه أنثى والنجوم المتلألئة مشبوكة بشعرها ولها ملامح فراو إيفا. وراحت صفوف الناس تغيب فيها، مثلما تغيب في كهف عظيم، وتختفي عن الأنظار. وجثمت الإلهة على الأرض والعلامة تلمع على جبهتها، وبدا أن حلماً يتأرجح فوقها. أغمضت عينيها وراحت ملامحها تتقلص ألماً. وبغتة صرخت فنفرت من جبهتها نجوم، آلاف من النجوم، شكلت أقواساً عجيبة وأنصاف دوائر في تلك السماء المعتمة.

واندفع واحد من هذه النجوم نحوي مصحوباً بصوت مرنان وكأنه يبحث عني. ثم تشظى متفجراً بصوت رهيب إلى آلاف من الشرارات، فقذف بي عالياً ثم ألقى بي على الأرض من جديد! وتفجر العالم من فوقي كالرعد.

عثروا عليّ قرب شجرة الحور مغطى بالتراب وبي جراح عديدة.

استلقيت في قبو، والمدافع تهدر من فوقي. ثم استلقيت في عربة راحت ترتج بي في ميادين خالية. ومعظم الوقت كنت نائماً أو فاقد الوعي. ولكن كلما تعمق نومي كنت أحس أنني منجذب بقوة أكبر. ومرة أخرى استلقيت في عربة ثم على نقالة أو سلم. وبقوة أكبر مما سبق أحسست أنني أستدعى إلى مكان ما. ولم أعد أحس إلا بالدافع يدفعني للذهاب إلى هناك.

وأخيراً وصلت غايتي. كان الوقت ليلاً وكنت في وعيي الكامل. وكنت قد أحسست بالدافع يتحرك بقوة في داخلي. صرت في قاعة طويلة، وتمددت على فراش ممدود على الأرض. وأحسست أنني وصلت إلى الغاية التي كانت تستدعيني. التفتُّ برأسي. قريباً من فراشي

كان شخص آخر يستلقي. شخص كان ينحني إلى الأمام ويتطلع إليّ. كانت على جبهته علامة. إنه ماكس دميان.

لم أستطع أن أتكلم. وهو لم يستطع أو لم يشأ أن يتكلم. كان يتطلع إليّ فقط. وضوء المصباح يسقط على الجدار فوقه ويتلاعب على وجهه. وابتسم.

حدق إلى عيني لفترة بدت أنها لن تنتهي. وببطء قرّب وجهه من وجهي فكدنا نتلامس.

ـ سنكلير! قال هامساً.

وبتطليعتي أبلغته أنني سمعته.

ابتسم ثانية بما يشبه الشفقة.

ـ أيها الصديق الصغير. قال وهو يبتسم.

كانت شفتاه قريبتين من شفتي. وبهدوء تابع كلامه. سألني:

ـ هل تستطيع أن تتذكر فرانز كرومر؟

غمزت له وابتسمت بدوري.

ـ اسمع يا سنكلير الصغير: إنني راحل. ربما احتجت إليّ ذات يوم مرة أخرى؛ ضد كرومر أو أي شيء آخر. فإذا ناديتني لن آتي بشكل ملموس، على ظهر جواد أو في قطار. سيكون عليك أن تنصت إلى أعماقك وعندها ستكتشف أنني في داخلك. هل تفهم؟ وهناك شيء آخر. قالت فراو إيفا: إذا ما كنت في وضع سيء فإن عليّ أن أمنحك قبلة أرسلتها لك معي... اغمض عينيك يا سنكلير!

أغمضت عيني طائعاً. وأحسست بقبلة خفيفة على شفتي حيث كان دائماً هناك قليل من الدم الطازج الذي لن يزول. ثم غرقت في النوم.

صباح اليوم التالي أيقظني أحدهم: يجب أن أضمد جراحي. وحين استيقظت تماماً التفت بسرعة إلى الفراش المجاور. كان عليه شخص غريب لم يسبق لي أن رأيته.

كان تضميد الجرح مؤلماً. وكل ما حدث لي بعدها كان مؤلماً.

ولكن حين أعثر على المفتاح، أحياناً، وأتعمق في نفسي حيث تسترخي صور قدري في المرآة المعتمة لايكون عليّ إلا أن أنحني فوق تلك المرآة المعتمة لأتملى صورتي، وقد أصبحت الآن تشبهه شبهاً تاماً: تشبهه هو، أخي، وسيدي.